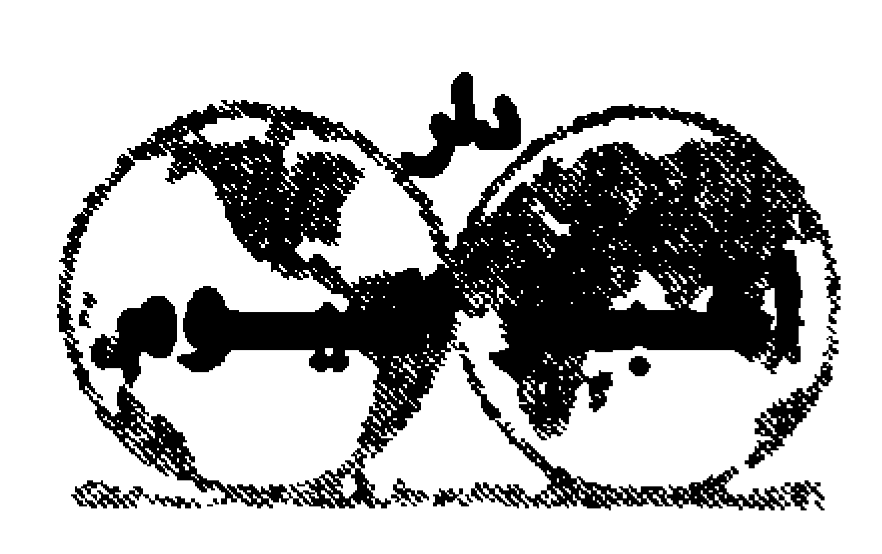

كتاب اليوم
أنا نادية
زوجة أمير الجماعة الإسلامية
مى عزام
تقديم: وجيه أبو ذكرى
Bibliotheca Alexandrina
0104473



قطاع الثقافة

كتاب اليوم

يصدر
أول كل شهر

□ عدد مارس ١٩٩٩ □

سعار كتاب اليوم فى الخارج

البلد	السعر	العملة
الجماهيرية العظمى	٢	دينار
المغرب	٢٠	درهما
لبنان	٤٥٠٠	ليرة
الأردن	٢٠٠٠	فلس
العراق	٧٠٠٠	فلس
الكويت	١,٥	دينار
السعودية	١٢	ريالا
السودان	٣٢٠٠	قرش
تونس	٢	دينار
الجزائر	١٧٥٠	سنتا
سوريا	١٢٥	ل.س
الحبشة	٦٠٠	سنت
البحرين	١,٢٥٠	دينار
سلطنة عمان	١,٢٥٠	ريال
غزة	٢,٥٠	دولار
ج. اليمنية	١٥٠	ريالا
الصومال، نيجيريا	٨٠	بنى
السنغال	٦٠	فرنكا
الإمارات	١٢	درهما
قطر	١٢	ريالا
انجلترا	٢	جك
فرنسا	١٠	فرنكات
ألمانيا	١٠	ماركات
إيطاليا	٢٠٠٠	ليرة
هولندا	٥	فلورين
باكستان	٣٥	ليرة
سويسرا	٤	فرنكات
اليونان	١٠٠	دراخمة
النمسا	٤٠	شلنا
الدنمارك	١٥	كرون
السويد	١٥	كرون
الهند	٣٥٠	روبية
كندا - أمريكا	٣٠٠	سنت
البرازيل	٤٠٠	كروزيرو
نيويورك - واشنطن	٣٥٠	سنتا
لوس انجلوس	٤٠٠	سنت
استراليا	٤٠٠	سنت

● الاشتراكات ●

جمهورية مصر العربية

قيمة الاشتراك السنوى ٦٠ جنيها مصريا

● البريد الجوى ●

دول اتحاد البريد العربى ٢٩ دولارا

اتحاد البريد الافريقى ٣٤ دولارا

أوربا وأمريكا ٣٩ دولارا

أمريكا الجنوبية واليابان واستراليا

٤٩ دولارا أمريكيا أو ما يعادلها

● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور

● ترسل القيمة إلى الاشتراكات

٣ (أ) ش الصحافة

القاهرة ت : ٥٧٨٢٧٠٠ (٥ خطوط)

● فاكس : ٥٧٨٢٥٤٠

● تلكس دولى : ٢٠٣٢١٠

● تلكس محلى : ٢٨٢

● قطاع الثقافة ٦ ش الصحافة

● تليفون وفاكس : ٥٧٩٠٩٣٠

أنا نادية زوجة أمير الجماعة الإسلامية

تقديم : وجيه أبو ذكرى

عرض وتلخيص : مى عزام

تاليف : بايا قاسمى

الغلاف بريشة الفنان :

مصطفى حسين

تقـــــديم

بقلم : وجيــه أبو ذكرى

■ نادية فـتاة جـزائرية من إحـدى قرى الجـزائر ، أوقعها حبها أو قدرها ، فى شاب أصبح أمير جماعة إرهابيـة ، من الجـمـاعـات الإرهـابيـة الجـزائرية ، فأصـبحت زوجة له ، بل ورزقت منـه بطفل تعيس ، نادية الشــابة تدلى بشـــهــادتهـــا عن الإرهاب فى الجزائر من خـلال معايشـتها لأمـير الجماعـة الإسلاميـة . قالت شهادتها بصدق ودون خوف ، فلقد ذهب الخوف مع مقتل زوجها أحمـد . ولو اعتـرفت زوجة إرهابى مصـرى بهذه الصـراحة ، لن يكون هناك تغيير إلا فى الأسماء ومواقع الأحداث ، فليس سرا أن قيادة الجماعات الإرهابية واحدة ، وأن فكرهم واحد ، بل ومصادر تمويلهم واحدة .

تقول نادية : أقنـعنى بأن المسلمين أصبحـوا تعسـاء منذ إلغاء الخـلافة الإسـلاميـة ، ويجب إعادة مـجدهم وسـعادتهم بإعـادة الخلافـة الإسلاميـة والتى ستـبدأ من الجزائر ، وعـلى المجاهدين

التخلص من رؤوس الفتنة ، وأول الطابور ، العسكريون والصحفيون وجميع المثقفين الذين يحاربوننا بكلماتهم ثم أصحاب المناصب الكبرى والمقربين إليهم ، وهذه هى الوسيلة الوحيدة لإقامة الخلافة !!

●●●

وفى سبيل إقامة الخلافة الإسلامية فى الجزائر تروى نادية بعض جوانب المذابح التى ارتكبوها ضد الابرياء من سكان القرى الجزائرية ، حيث يقتلون الفقراء ، ويبتزون الأغنياء ، ويصعدون الجبل نهارا ويعودون ليلا للقتل والتدمير ، وعندما كثرت مذابحهم ، لم يعد يطيقهم الناس ، وأداروا لهم ظهورهم ، بل طلبوا السلاح لمواجهتهم ، وفعلا واجه سكان القرى هذه الجماعات الإرهابية المسلحة ، ومزقوا لافتاتهم ، وتتحدث نادية طويلا عن تدميرهم للمدارس ، تقول نادية فى شهادتها : « كانوا يقومون بأشياء لا يقبلها الناس ولا يفهمونها ، كان هدفهم أن يعم الجهل الجزائر ، لكن الجزائريين رفضوا أن يكون أولادهم جهلاء ، حرق المدارس كان يؤلم الناس بشدة ، خاصة أنهم كانوا يحرقون مدارس الأحياء الفقيرة ، ولكى يبرروا هذه الجريمة كانوا يعلنون أنهم ضد التعليم الحالى الذى يسمح للفتيات بالسفور ، وكان الإرهابيون يعلقون لافتات عليها عبارة « غطى شعرك وإلا تعرضت لبنادقنا » ولقد تحجبت النساء حتى الأطفال الصغار . وتقول نادية : ومن تجاسرت وخرجت وشعرها مكشوف دفعت الثمن هى ووالدها مثل كاتيا التى خنقوها فى مدرستها تحت أعين

زميلاتها ومدرسها لأنها رفضت الحجاب ، ولقد تكررت قصة كاتيا فى كل قرى المنطقة .

●●●

نعم .. أهداف الجماعات الإسلامية هنا وهناك واحدة ، فليس سرا أن هذه الجماعات فى مصر . واستطاعت أن تفرض الحجاب على التلميذات الصغيرات ، وأن تلغى النشيد الوطنى وتحية العلم فى كثير من مدارس الريف المصرى ، بل تتبع منهجا يقرر على التلاميذ الصغار للترويج لأفكارهم ، وتغلغل نفوذهم بشكل لافت للنظر ، وكان الهدف أن يصبح لدى الإرهابيين عدة آلاف من الشباب الذى ينتمى إليهم ويؤمن بأفكارهم ، لولا تدخل وزير التعليم المصرى الدكتور حسين بهاء الدين ، وطهر المدارس من المتعاطفين معهم من المدرسين ، وأخرج من المدارس مناهجهم وأعاد إلى النشيد الوطنى والعلم المصرى قدسيته بالمدارس .

إن اعترافات زوجة الإرهابى الجزائرى أحمد ، تؤكد أن من أهدافهم القضاء على التعليم لسهولة قيادة شعب أمى جاهل ، أو أن يكون التعليم الأساسى بالذات تحت سيطرتهم كما كان مقررا أن يحدث فى مصر .

●●●

تتحدث نادية عن زوجها قبل أن يصبح إرهابيا ، فتقول إنه كان منبوذا من أهل القرية لأنه لص ، يسرق البيوت وينفقها على الفساد ، لذلك لم يكن أحد يحترمه فى القرية ، وبعد أن أصبح إرهابيا يحمل السلاح فى القرية تحول إلى شخصية يخشاها كل سكان القرية ويعملون له ألف حساب .

لقد تذكرت حادثة هنا فى مصر ، فلقد التقيت بثلاثة من الإرهابيين المصريين فى مديرية الأمن العام فى مصر ، كان أحدهم شابا لا يتجاوز العشرين ، عاطلا ، منبوذا من أهل القرية ، وعندما انضم إلى الجماعات الإرهابية ، والتى كانت تسيطر على إحدى قرى الصعيد ، ثم حمل السلاح ، تغير حاله وأصبح مهابا من كل أهل القرية ، فتمسك بالجماعة حتى تم القبض عليه .

●●●

وتحدثت نادية - زوجة أمير الجماعة الإرهابية - عن مواجهة الشرطة الجزائرية للجماعات الإرهابية ، وكيف استطاعت الشرطة الجزائرية أن تكسر شوكتهم مما شجع سكان القرى على الإبلاغ عنهم بل أيضا مواجهتهم .

وبودى أن يقرأ رجال الشرطة فى مصر هذا الكتاب ، لأنه يروى أسلوب مواجهة الإرهاب فى الجزائر ، بل ومعاملة نساء الإرهابيين ، مما جعل الكثير من الآباء والأقارب يبلغون عن أبنائهم الإرهابيين ، إن هذا الأسلوب قد أدى إلى بناء قاعدة معلومات لدى جهاز الشرطة الجزائرى .

●●●

كنت أقرأ كتاب المستشرق الفرنسى روجيه جارودى الذى صدرت ترجمة له فى مصر ، وعنوان الكتاب : محاكمة الصهيونية الإسرائيلية . وفيه يتحدث عن الاستراتيجية الإسرائيلية للتآمر ضد الدول العربية ، وبعد قراءتى لهذا الكتاب شعرت بان أصابع الصهيونية ليست بعيدة عن تلك الجماعات ، فليس سرا أن قيادة هذه الجماعات الإرهابية على مستوى العالم الإسلامى كله

موجودة فى لندن ، وأن أفغانســتان مكان للتدريب فقط ، وبالتالى أجزم أن الصهيونية قد اختـرقت قيادات هذه الجماعات وأنها تقف دعما لمخـططاتهم ، بل ربما يظهر ـ فيمـا بعد ـ دور الصهيـونية ، كـما انكـشف من قبل دور هذه الجـمـاعـات فى زراعة المخـدرات والتجارة بها ، ثم أصبحت المخدرات مصدرا هاما لتمويل عملياتهم الإرهابية .

●●●

بقيت كلمة أخيرة .. لقد اسـتهدف الإرهاب مصر والجزائر فى وقت واحـد ، بل أقول إن التكثـيف على مـصر كـان أشد ، ولقد فشلوا فى مصر لأسباب عديدة ، منها يقظة رجال الأمن والطبيعة الجغرافية فى مصر ، ولكن فى الجزائر سـاعدتهم الطبيعة الجبلية على اسـتـمـرارهم ، وبلا شك تم حـصـارهـم بواسطة الشـرطة والشعب الجزائرى .

●●●

إن الكتاب وثيقة تكشف تفكير هذه الجماعات ، وجاءت ترجمته التى قامت بها الكاتبة مى عزام بأسلوب روائـى شيق ، فهو أشبه بروايات الرعب التى تنتجهـا السينما العالمية ، وليت شـباب مصر يقرأون هذا الكتـاب ، وخاصة رجال الأمن منهم ، فهـذا الكتاب به عدة صـور صادقـة لإرهاب ما يسـمى « الجماعـات الإسلامـية » والإسلام برىء منهم .

وجيه أبو ذكرى

مقدمة

ماذا يحدث فى الجزائر ؟

ما الذى يدفع الكاتبة الجزائرية أحلام مستغانمى أن تقول : «كنا نحلم بكتابة كتب جديدة، أصبحنا نحلم بإعادة طبع كتبنا القديمة ليس أكثر . فالذى كتبناه منذ عشرين سنة لم نعد نجرؤ على كتابته اليوم . وطن كنا نحلم بأن نموت من أجله وإذا بنا نموت على يديه.

أى وطن الذى كلما انحنينا لنقبل ترابه باغتنا بسكين وذبحنا كالنعاج بين قدميه» .

وتضيف أحلام : « عندما تكون كاتبا جزائريا وتأتيك الجزائر يوميا بقوافل قتلاها .. بين اغتيالاتها الفردية ومذابحها الجماعية ، وأخبار الموت الوحشى فى تفاصيله المرعبة ، وقصص أناسه البسطاء فى مواجهة أقوام ظالمة ، لابد أن تسأل نفسك ما جدوى الكتابة ؟ لقد فقدنا فى الجزائر خلال السنوات الأخيرة أكثر من ستين كاتبا ومبدعا ، هم أكثر من نصف ثروتنا الإعلامية.

الكاتب فى الجزائر اليوم نـوع بشرى على وشك الانقراض ، والكتابة تهمـة لم يعد الكاتب يدرى كيف يتبـرأ منها ، وذنب لم يعد يـدرى كيف يجب أن يعلن توبتـه عنه أمام الملأ لكى يـعيش بأمان » الجزائر ، ذلك البلد العـربى الشقيق ، الجميلة بطبيـعتها الساحـرة وثرائها . بـلد المليون شـهيد . البـلد الذى سافـر إليه أعداد كـبيـرة من الأساتذة والمدرسيـن المصريين فى السـتينات. بعد استقلاله ، ليكونوا طليعة التعريب.

وبقى من هذه الأعـداد الكبيـرة البعض وعـاد معظمـهم وفى القلب أجمل الذكريات عن هذا البلد الحر .

ما الذى حدث للجزائر ؟

كـيف تحـول هذا الـبلد . الذى يملك كل إمكانـيـات التـقـدم والنمو ، إلى وطن يقتل بعضه بعضه.

الكثيرون وقفـوا عاجزين عن تفسير ظاهرة المذابح الجـماعية فى الجـزائر ، والاتهامـات المتبـادلة بين الجمـاعات الإسـلاميـة المتطرفة والسلطة حول دور كل منها فى هذه المذابح.

ولقد اختار الأستاذ / إبراهيم سعده بحسه الصحفى المرهف وفكره السياسى المتوقد ، هذا الكتاب البسيط فى تناوله ، العميق فى محتواه ليكون شهـادة تفسر وتجلى وتوضح ما يحدث على الأرض الجزائرية وفى قراها البعيدة والمنعزلة والتى تعد المسرح الرئيسى لهذه الأعمال الوحشية .

ولقد شرفنى بتكليفى بترجمته لقطاع الثقافة بأخبار اليوم .

وأعتقد أن القارىء ، سيفهم الكثير عما يحدث فى الجزائر بعد قراءته لمذكرات زوجة شابة لأحد أمراء الجماعة الإسلامية المسلحة (جيا) ، وما تحكيه يتشابه مع ما يحدث فى العديد من الأقطار العربية والإسلامية التى ينتشر فيها التطرف مختفيا تحت عباءة الإسلام السمحة.

مى عزام

القاهرة

٣١ ديسمبر ١٩٩٨

مقدمة المؤلفة

عـرفت نادية (فلنطلق عليـهـا هذا الاسم) عندمـا كنت بصـدد تحقـيق صحـفى ، عن النسـاء ضحـايا الإرهاب .

قابلتـها فى جمعـية الأزهر ، التى ترأسـهـا إحدى صديقـاتى داليلا علال . نادية كانت مـفلسة وتطلب بيأس المساعدة.

لم تكن تعـرف أى أخبار عن زوجـها منذ عـام ونصف ، ولقد أدركت أن عليـها ألا تعـتمد علـى عودته، وقررت أن تـعتمـد على نفسـها.

والداها، كانا يكرران على مسـامعها كل يوم أنها عبء عليـهما، ومادامت عاشت مـعهما فسيكونان مـحل اضطهاد ولن يتمكنا من العودة لمنزلهما .

نادية عرفت بوجـود داليلا عن طريق التليـفزيون. ذهبت إليـها تطلب المساعدة فى ايجاد عمل حتى تتمكن من ترك عائلتها.

داليلا أشفقت عليها، وحاولت مساعدتها دون أن تقاضيها.

وجدت لها مكانا مع عائلة حيث توجد الآن.

ولقد وافـقت نادية على أن تقدم شـهادتها فى هـذا الكتاب عن

حياتها مع الأمير المحلى لقرية فى ميتيجا.

أحمد، زوجها السابق، كان نموذجا لعضو الجماعة الإسلامية المسلحة (جيا) فى الجزائر.

كان غير متعلم ، معتادا على العيش بالتحايل، يمثل جزءا من المنبوذين فى المجتمع، ولقد أعطته جيا مكانة.

ولقد صدق ذلك. لاتهم الوسائل، لكن المهم أنه أصبح فى مكانة رئاسية، ومن كانوا يعاملونه من قبل بازدراء بصفته متشردا أصبحوا فى خدمته.

لأن هؤلاء اعتقدوا أن الأشياء تحولت بشكل ما. ولقد صدقت نادية، لسذاجتها، أنها زوجة سيد وأنها أم للمؤمنين.

لكن سرعان ما ذهبت هذه النشوة، ووجدت نادية نفسها بدون منزل، تبحث كل يوم عن سقف يؤويها. مطرودة من الجميع. حتى هؤلاء الذين كانوا حتى وقت قريب يعاملونها على أنها سيدتهم المبجلة.

ولقد وافقت هذه السيدة الشابة (٢٢ سنة) على أن تتحدث عن حياتها بدون غش أو مواربة.

حكت أدق تفاصيل حياتها وعلاقتها بأسرتها وزوجها. فعلت ذلك وهى ترجو أن تكون قصتها عبرة لغيرها من الفتيات. الشرط الوحيد الذى وضعته لنشر القصة، أن يظل أبطال القصة الحقيقية طى الكتمان بغرض حمايتهم. فهى تحبهم، وتقدر أن هؤلاء عانوا بسببها بما فيه الكفاية. ولقد تغيرت أسماء الاشخاص كلها بالاضافة إلى أسماء الأماكن الحقيقية والقرية التى جرت فيها أحداث القصة. تم اختيار اسماء أماكن متشابهة من حيث الطبيعة

الجغرافية والاجتماعية والسياسية للأماكن الحقيقية. فالمؤكد أن الأحداث حقيقية كما روتها نادية.

أنا أعرف أن هذا الكتاب سيكون له معارضون من الجانبين: من جانب هؤلاء، الذين سيجدون بدون شك أننى جملت وحسنت من موقف قوات الأمن.

ومن الممكن أن ينتقل هذا الاحساس للقارىء، لكن الحقيقة أن نادية كان لها حظ مع هؤلاء. فمنذ البداية عاملها مأمور القسم فى بلدتها بشفقة ورأفة. فلقد اعتبرها ضحية أكثر منها مذنبة. والطريقة التى عوملت بها لا يمكن تعميمها.

وفى الجانب الآخر، يعتقدون بالعكس، أننى أصبغت على المتطرفين وعائلاتهم صبغة إنسانية، وأننى أهنت قوات الأمن التطوعية بأننى أسندت إليها الكثير من حالات الاعتداء والقتل لعائلات أعضاء جيا.

وهؤلاء يجدون أن دموع وآلام أم متطرف على مقتل أولادها، قصاص عادل لها لأنها لا تستطيع أن تمحو جرائمه.

كما أن هؤلاء، لا يقتنعون بأن سكان القرية كانوا فى فترة ما يدعمون - عن اقتناع - جيا. ويفضلون أن يظلوا على اعتقادهم بأن السكان طيبون، ولو ساندوا يوما جيا فبدافع الخوف لا الاقتناع. الحقيقة تقع دائما فى منطقة الفروق الدقيقة لدوافع الناس. وبالنسبة للجانبين، فمنذ بداية العنف فى الجزائر، العاطفة حجبت الرؤية الواضحة والحكم الصائب. فكل معسكر يعتبر الآخر عدوا.

معظم تحليلات كبار المحللين والسياسيين ترتكز على أوضاع مجزأة لا تعطى إلا رؤية عمياء، ليبدو الأمر وكأنه صراع بين

النور والظلام. وهم بذلك يسكبون الزيت على النار، في حين يجب أن نخفف من الضغينة والأحقاد.

وبالنسبة لهؤلاء الذين حاولوا توضيح الأسباب الحقيقية، بدون الانحياز لأى من المعسكرين، فإن هؤلاء العقلاء لم يستمع إليهم بكل بساطة.

وبسبب هذه الرؤية المختزلة، فإن قليلا من الأشخاص فى الجزائر وخارجها حاولوا حقيقة أن يفهموا.

بايا قاسمى

الجزائر

فبراير ١٩٩٨

- ١ -

أحمد، زوجى، مات منذ شهر. قتل فى أثناء عملية شنتها قوات الأمن فى شريعة. وجد جسده مفصول الرأس.

الشرطة تظن أن ذلك تم على يد اصدقائه، الذين أخفوه. فأعضاء (جيا) يفعلون ذلك كثيرا، وخاصة عندما يتصل الأمر بأحد أمرائهم. ولقد تم التعرف على أحمد لوجود جروح فى ذراعه. هذا ما قاله رجال الشرطة لأبى. كنت أعتقد أنه يمكننى التعرف على جثته من بين المئات، لكن ما تم عرضه علينا يتشابه بشكل يجعل من الصعب تمييز الواحد من بين الآخرين.

كنت أتوقع موته منذ فترة. كل يوم وأنا جالسة أمام شاشة التليفزيون الساعة الثامنة مساء، كنت أتوقع رؤية جثته ضمن المتطرفين الذين قتلوا.

وهو ما شاهدته بالفعل. منذ أسبوعين، شرطة مدينة الكاليتوس التى يتبعها كفر حى بوناب، حيث كنت أعيش معه، أبلغوا والدى بمقتله، وطلبوا منه أن يخبرنى.

ذهبت لقسم الشرطة، وفى يدى دفترى العائلى، وكل أملى فى أن تقوم السلطات بتدوين وضعى العائلى الجديد : أرملة فى الثانية والعشرين من عمرى وأم لطفل يبلغ سنة ونصفا.

كنت أنتظـر ذلك منذ وقت طويل. سـأسـتطيـع فى النهـاية أن اتحرر مـن القيـد الذى ربطنى برجل لم أعد أراه منـذ مارس ٩٦، لكن وجوده كان يمثل لى عبئا يوميا.

رئيس الدرك استـقبلنى وأكـد لى أنه تلقى معلومـات عن وفاة أحمد. شهـود من أعضاء جيا كانوا معه وتم القـبض عليهم أحياء. لكن قانونيا ما دام لم يتحقق من شخـصية الجثة لا يمكن اعتباره ميتا، وبالتالى لا يمكن أن يكتب ذلك فى الأوراق الرسمية.

خيبة أمل جديدة. حتى فى مـوته يسبب لى تعقيدات. أمام ذلك الموقف نصـحنى المأمـور بأن أتقـدم بالـتمـاس لنـائب رئيس الجمهـورية للتصديق على الوفاة. هذا الالتمـاس يسمح لى، خلال بضعـة أشهـر، لو لم يتحـقق من جثـة أحمـد، أن تقيد وفـاته فى السجلات طبقا للشهود.

هذا يحدث الآن، نظرا لكثـرة أعداد المتطرفيـن الذين يقتلون فى الغـابات ويدفنـون فى أمـاكنهم على يد زمـلائـهم.. رئيس الدرك طمأننى وقال لصـديقتى التى كانت تصحبنى : «زوجـها سبب لنا ولعـائلته وقـريتـه الكثيـر من المشـاكل، كان أحـمق، وكان يقـوم بتصرفات جنونية فماذا جنى؟ ترك خـلفه أرملة شابة وطفلا يتيما وفى النهاية مات ككلب...».

فى مساء هذا اليوم، بكيت طويلا فى فـراشى، كان بكاء يمتزج فيـه الألم بالقهر بالفرحـة. مشاعـر متداخلة. كانت دمـوع الحزن بالتـأكيد ولـكننى كنت سعـيدة لأننى خـرجت من الكابوس الذى عـشت فيـه بالرغم من كل شىء، لـم أكن أتمنى أن تنتـهى حيـاة زوجى وأب ابنى، الذى عشت معه ٣ شهور والذى أحببته بجنون،

بهذه الطريقة التى انتهى إليها. جسد بدون رأس ملقى فى أحد أودية ميتيجا .

بعد عام ونصف، عدت إلى حى بوناب. كان ذلك فى فصل الربيع، حيث تبدو المنطقة رائعة، مفروشة بسجادة من السندس الأخضر المنثور عليه زهور الربيع الصفراء.

تذكرت حين كنت فتاة صغيرة لا تشغلنى الهموم، أعدو فى الحدائق المزهرة طوال العام. أشجار البرتقال كانت ما تزال تحمل بعض الثمر الذى أهمل المزارعون فى جنيه .

كان هذا الإقليم يمثل الرخاء لمن نجح فى استغلاله. ولقد بدأ ذلك الفرنسيون. عندما أشاهد هذا الجمال الفردوسى كنت أتساءل كيف يمكن للمقيمين فيه أن يكون لديهم ميل للعنف؟.

فى بلدة الكاليتوس، على بعد أمتار من سور الدرك، اصطدمت بعلى الذى كان يرتدى زى الجنود المتطوعين.

لم أتعرف عليه من أول نظرة. كان فى الخامسة والأربعين من عمره، لكنه يبدو أكبر من ذلك. فلقد شاخ خلال أقل من سنتين.

وجهه حفرته التجاعيد والهموم، كان مع رجال الشرطة يحرس حواجز الطريق والبندقية على كتفه.

توقفت لألقى عليه التحية. أمامى لم يكن يستطيع أن يتخلص من الاحساس بالذنب، ولم يستطع أن يمنع نفسه من الحديث فى الموضوع : «أنت تعرفين، بعد كل ما عملته من أجلهم، كانوا يريدون أخذ بناتى بالقوة، وإرغامى على بناء مخبأ لهم تحت منزلى..».

لم أرد عليه. المجادلة كانت مؤلمة وعديمة النفع. كما أن همومى

كانت أكبر من ذلك. سألته عن أحوال بناته اللاتى كن صديقاتى.

فى الحقيقة، لم أعد أرغب فى الحديث إليه، منذ أن أبلغ عن زوجى ورفاقه. ولقد عاش لمدة عام فى حجرة في الكاليتوس مع عائلته الكبيرة، خوفا من انتقام أعضاء جيا.

لم يكن الوحيد الذى وجد الحل فى الانتقال والهرب. الإرهاب سبب هجرة عدد كبير من الناس وفرّق عائلات كثيرة.

وعندما رأيت على فى وظيفته الجديدة، وهو الذى كان حليف جيا الموثوق فيهم، أدركت كم تتغير الأمور.

الحياة استرجعت مسارها الطبيعى، لكن مازال ينقصها الفرحة التى كانت موجودة من قبل.

وكأن هناك سحبا من الرصاص تخيم على المنطقة. وكيف لا!! ما أن تقترب من الكفر، حتى تجد كل الرجال الذين تقابلهم حاملين سلاحا. ذهبت إلى حى بوناب لكى أزور أمى التى عادت لتستقر منذ أسبوعين فى منزلها القديم. لم تكن قد عادت لحى بوناب، ولا أنا أيضا، منذ ذلك اليوم الذى أشهر فيه جيراننا وأصدقاؤنا السلاح فى وجوهنا، مهددين بإشعال النيران فى الشاحنة التى تحمل أمتعتنا وأثاثنا، متوعدين بقتلنا.

كنا سعداء بالعودة، وتناسينا أننا بالنسبة لهم عائلة من الإرهابيين. منزلنا حفظ بفضل الشرطة، التى سكّنت فيه عائلة محتاجة، بعد أن أكدت عليها أنها ليست سوى حارسة للمنزل.

بالنسبة لمنزلى كان لابد أن أمر عليه، وأنا فى طريقى لمنزل أمى.

كان يحمل آثار الحريق والدمار، ورغم ذلك كانت تعيش فيه

إحدى العائلات. لكن أمى قالت لى أنهم عائلة شريفة فقدت منزلها بسبب انفجار، وهم على استعداد لترك المنزل عندما أطلبه.

سكان كفرنا كانوا يعتقدون فى انتصار جيا أو كانوا يتظاهرون بذلك.

كنت أؤمن بذلك ، ما دمت زوجة أحمد شعبانى أمير حى بوناب والمناطق المجاورة.

لقد شاركنا جميعا فى تثبيت وانطلاق الإرهاب، بصمتنا ودعمنا له.. خلال ثلاث سنوات، كانت الجماعة تمثل القانون هنا، بسكوت الأهالى الذين قبلوا كل شىء ولم يثوروا ضد جيا. حتى جاء اليوم الذى بدأت فيه هذه الأخيرة فى إرهاب الذين كانوا يساعدونها.

التغير والتبدل كان سريعا وعنيفا. بالنسبة لى لم أكن القى أسئلة كنت ببساطة أحب زوجي. غفرت له كل شىء.. ودفعت الثمن غاليا.

ـ ٢ ـ

ابى وأمى كانا أولاد عـمومة. قضيـا طفولتهمـا فى قرية دوارا الزراعية، التى تبعد عشرين كيلومترا غرب العاصمة الجزائر.

تواعد أبواهما على زواجـهما منذ طفولتـهما المبكرة. فى الريف من المألوف أن يعطى الأب وعـدا بزواج ابنتـه عند مـيلادها لأحـد أبناء عمومتها أو لابن أحد جـيرانه،، ولقد كبر الاثنان بفكرة انهما لبعضـهما.

وعندما شبا شـعر كل منهما بحبه للآخـر. ولم يصبرا طويلا. فلم تكن أمى قد أكملت عامهـا الرابع عشر حين تزوجت أبى الذى كان فى السابعة عشرة.

بعد عام ولدت. هذا التقارب العـمرى بينى وبين أمى كان دائما مـصدرا للكثـيـر من الالتبـاسات. الكثـيـر من الأشخـاص الذين لا يعرفوننا كانوا يعاملوننا على أننا صديقتان.

كنا عائلة من الفـلاحين الفقراء، لكن كنا نعـيش فى جو عاطفى دافىء. فالحب الذى جـمع بين أبى وأمى ـ ومازال موجـودا حتى الآن ـ ساعدنا كـثيرا على أن نتخطى العقـبات التى كان من الممكن أن نشـعر بها.

كمـا أننا لم نكن نعيش فى بؤس. فـقد كنا دائما نجـد ما نأكله

حين نجوع، فى الغالب كانت منتجات طازجة.

كان أبى فى ذلك الوقت، عاملا زراعيا. كان لدينا دائما خضار وفاكهة الموسم فى المنزل، كما كان يقايض المزارعين بالمزارع المجاورة لنحصل على البيض واللبن وأحيانا اللحم والعسل.

كان المزارعون يتعاملون فيما بينهم بالمقايضة، كان هناك العديد من المنتفعين بالمزارع الحكومية يستغلون مئات الهكتارات فى انتاج مختلف المزروعات إلى جانب تربية الحيوانات.

كان أبى رجلا ظريفا لكن غريبا. كان يحب الضحك طوال الوقت لكنه الآن أقل بكثير عن طيلة حياته، لم يكن يفكر إلا فى أن يسعد نفسه ويستريح. أما الباقى فلا يهم. سكان الريف رغم أنهم متحفظون وتقليديون إلا أنهم محبون للهو والضحك.

أبى كان يحب أمى ويغار عليها كثيرا. بعد عامين من زواجه، جاءه رجل يدعى أنه كان على علاقة بأمى قبل زواجها. لم يحاول أن يتحرى الحقيقة. وأرسل أمى لمنزل أبيها، دون أن يفكر كيف استطاعت أمى التى كانت مخطوبة له منذ طفولتها أن تخونه، وهى التى تزوجته ولم تكمل عامها الرابع عشر. ولقد أبقانى معه، فى رعاية جدتى التى كانت تعيش معنا. لكن ما إن شعر بوحدته لغياب أمى حتى تحول لرجل بائس، وأقبل على الشراب، وعندما يسكر كان يضربنى ثم يبكى. عندما كان يشعر بالحنين لأمى، كان يجعلنى حجته ليذهب ليراها، فكان يصحبنى إليها. كان يستغل ذلك لينفرد بها. فى هذه الفترة حملت وعندما علم جدى أجبره على استعادة زوجته.

وأمام خجل أبى من فعلته، رفض أن يعترف بأنه المسئول عن

هذا الحمل. وقرر أن يعرض الأمر على المحكمة وبعد تدخل القاضى انصاع للأمر. فى الحقيقة كان يخاف من كلام الجيران، عندما يرون أمى تعود لمنزله حاملا، وهى التى كانت بعيدة عنه منذ عدة شهور. فى نفس الوقت كان سعيدا بعودتها، ولقد احتفل بذلك بإقامة وليمة دعا إليها كل القرية. فى الحقيقة لم يكن أحد من العائلة، يفهم ما يدور فى رأس أبى.

كان عمرى ست سنوات، عندما منحتنا السلطات المحلية منزلا فى قرية زراعية فى محيط شيراجا (على بعد ١٥ كم جنوب العاصمة).

كان منزلا جميلا مكونا من عدة حجرات ومطبخ وفناء داخلى مبلط. كان أبى عاملا زراعيا فى دائرة زراعية تابعة للدولة.

كنا فى حالة جيدة. دخلت مدرسة القرية، كنت أحصل على درجات ممتازة وكان المدرسون يحبوننى كثيرا. مازلت أحمل أجمل الذكريات عن هذه الفترة التى استمرت تسع سنوات.

كنا عائلة سعيدة. وكان لابد لهذه السعادة أن تنتهى للأسف بسبب رعونة أبى. كان كسولا. فى يوم قرر أن يتوقف عن العمل فى المزرعة. كانت حجته أنه ليس منسجما مع زملائه.

الحقيقة كانت مختلفة قليلا. فزملاؤه كانوا يؤنبونه على تكاسله فى حين كانوا يعملون من الصباح حتى المساء. كانوا يشتكون منه، بعد يومين أو ثلاثة توقف عن العمل بحجة أن الأرض ليست خصبة ولن تنتج أبدا، وكان المحصول سيئا.

ولم يكن ذلك حقيقيا، فعندما أعطت الدائرة، بعد ذلك، هذه الأرض لمجموعة جديدة من العمال المزارعين، استطاعوا أن ينتجوا

منها مختلف أنواع الخضار والفاكهة بما فيها الفاكهة الغريبة التى لم نرها من قبل. ولقد أصبح هؤلاء أثرياء. أبى يندم الآن على سلوكه السابق. لكن فى ذلك الوقت كانت هناك فكرة واحدة تملأ رأسه : أن يكون لديه سيارة. وليحقق حلمه قرر أن يبيع البيت وهكذا فقدنا منزلنا فى شيراجا. أمى تقول دائما أننا فقدنا البركة بفقداننا هذا المنزل الذى أحببناه كثيرا وعشنا فيه سعداء.

بفلوس البيت اشترى أبى منزلا آخر فى حى بوناب، وهو كفر صغير تابع لبلدية الكاليتوس بالقرب من براقى (على بعد عشرين كم من شرق العاصمة). المنزل الجديد كان مختلفا تماما عن الأول. كان أصغر وأقل راحة بدون كهرباء أو ماء جار. أرضيته من الأسمنت. ولم تعتد عليه أمى إلا بعد فترة طويلة، وإخوتى لم يكونوا سعداء فيه. أنا بكيت أياما ولم أكلم أبى خلالها..فى هذه الأثناء، تركت المدرسة. كنت فى السنة التاسعة من التعليم الأساسى. فالمدرسة الجديدة لم تكن تناسبنى. كانت بعيدة جدا عن المنزل. كان لابد أن أسير ساعة كاملة فى الحقول لأصل إليها. فى الشتاء كانت مأساة. عندما تمطر السماء، كنت أصل إلى الفصل وأنا غرقانة فى الوحل حتى الركب. لم أكن أفكر إلا فى العودة للمنزل لكى أتدفأ. كنت فى الخامسة عشرة من عمرى وكل زميلاتى استمررن فى شيراجا. من ناحية أخرى، وجدت المدرسة الجديدة ثقيلة الظل وفضلت البقاء فى المنزل. وهذه كانت وسيلتى للانتقام من أبى الذى ضايقه انقطاعى عن التعليم.

كان أبى أميا، وكان يحلم لى بمستقبل كبير. كثير من الفلاحين فى ذلك الوقت، كانوا يعتمدون على تعليم أولادهم ليخرجوهم من

البؤس. أمي كانت محبطة لكن جلوسي في المنزل كان له فائدة، فلقد أصبح لديها من يساعدها في أعمال المنزل. لم تكن تستطيع أن تخدم العائلة وحدها. كنت الابنة الكبرى وبعدي سبعة. أكبرهم ولدان لا يشاركان في الأعمال المنزلية بحكم التقاليد. وهكذا انتظمت في حياة جديدة. كل صباح كنت أذهب لنبع الحي، الذي يبعد مائتي متر من المنزل، لأملأ المياه. كما كنت أقوم بغسل الملابس والصحون.. الخ، لم تعد أمي تشغل نفسها إلا بالطعام وأولادها.

كان شراء هذا المنزل الجديد مأساة للجميع عدا أبي. فلقد وجده عملية جيدة، فلم يدفع فيه سوى ٢٤٠ ألف دينار، وبقي معه ٣٠٩ آلاف دينار ليشتري سيارة الاحلام ويدخر مبلغا. وليجد لتصرفه مبررا قرر أن يحول السيارة التي سيشتريها إلى «تاكسي»، وبذلك يكسب أكثر من عمله في المزرعة.

لكن تفكيره الذي لم يعلنه، أن الفلوس الموجودة تسمح له بالحياة بدون عمل، وهو ما بدأه.

لسوء حظه، اشترى سيارة مستعملة من شخص غير مأمون وكانت في حالة سيئة وباعها خلال بضعة شهور بسعر أقل. واشترى سيارة أخرى أسوأ من الأولى. وكرر التجربة أكثر من مرة، حتى استنفد المبلغ الذي كان معه.

خلال عامين، لم يكن أبي يفعل أكثر من أن ينام معظم الوقت. لم يكن يستيقظ إلا بعد الظهر. في الليل لم يكن يأتيه النوم، كان يفعل المستحيل لنظل مستيقظين حتى يجد صحبة. وعندما كان يمل، كان يطلب منا أن نحضر له الطعام في عز الليل.

ولأنه كان لطيفا معنا، كنا نتحمل كل نزواته. وعندما نفدت كل نقوده شعر بالحاجة للعمل. نصحه أحد الجيران قائلا : «اطفالك كثير، وليس لك حق فى النوم طول النهار».. ولقد اضطر أبى لقبول وظيفة كناس فى خدمة الطرق بالبلدية، كان خجلا منها. ولم يكن يظهر حماسا فى عمله الجديد. الموظفون فى البلدية كانوا يشتكون منه بصفة دائمة، وكان يقولون أنه لا يقوم إلا بنصف العمل.

الشىء الوحيد الذى لم يكن يجهده هو الإنجاب. فمنذ سكنا حى بوناب، زاد عددنا ثلاثة. أمى الآن فى السابعة والثلاثين وهى جدة، وحامل للمرة الحادية عشرة وستلد خلال شهرين.

أبى ظل يعمل ككناس فى الكاليتوس حتى فصل بعدما شاع أمر زواج ابنته من أمير لجيا.

- ٣ -

اعتدنا علـى حياتنا الجديدة بمرور الوقت، المنزل تغـير. أدخلت أمي وأنا تحسينات عليه، وببـعض الأدوات البسيطة نجحنا فى أن نجعل منه مكانا مبـهجا مريحا. خيبـة أملنا الأولى انتهت، وبفضل دعم الجيران الظرفاء المتعـاونين عشنا نفس الجو الذى عرفناه فى شيراجا.

التـحول لم يكن فى منزلنا فـقط، ولكنه شـمل حى بوناب كله. فلم يعـد هذا الـكفـر المعـزول الذى جـئناه يومـا. لـكنه دخل فى المنظومة الاجتماعية، فلقد افتتح فيه مدرسة ومستوصف ومحلات صغيرة.. الخ.

عندما حضرنا فى البداية، كان الكفر فى بداية إنشائه ولم يكن هناك إلا الحوائط. بعـد ذلك دخلت الكهرباء واشـترينا تليـفزيونا، وبسـرعة كـان الكفـر كله لديه ايريال دائرى. كنا نشـاهد القنوات الفرنسيـة وقنوات البلاد العربية، لكن ليس أمـام أبى، كانت هناك مشاهد جريئة فى الأفلام لم يكن يسمح بأن نشاهدها.

افـتتح مـحلان للبـقالة، سـعدنـا بذلك لأننا أخيـرا سنشتـرى احتيـاجاتنا الأساسية بدون الحـاجة للسير ساعة خـلال الحقول. وبذلك أصبـحت حيـاتنا أسهل. فى حى بوناب، كـانت هناك ثلاث

مجموعات من المنازل، يسكنها حوالى مائة. كل منزل يؤوى اثنين أو ثلاثة أخوة متزوجين مع أولادهم والأجداد بالاضافة إلى الخالات أو العمات وفى بعض الاحيان أولاد العمومة.

فى البداية ساعدنا الجيران كثيرا. أبى كان معظم الوقت بدون عمل. العمال فى المزارع المجاورة كان يرسلون إلينا بصفة دورية نصيبا من الفاكهة والخضراوات عندما يأخذون نصيبهم.

الجميع كانوا يعيشون على ما يرام. حتى نحن الغرباء بينهم. فالعائلات الأخرى كانت تنتمى لقبيلة «سواقى» من أولاد سلطان فى منطقة مدية. كنا تقريبا عائلة واحدة، أى شىء يحدث لواحد منا كان يتأثر له الجميع.

أجمل يوم عاشه سكان القرية كان يوم افتتاح المدرسة الأساسية كان ذلك عام ٩٢، أى بعد سنة من وصولنا لحى بوناب.

اشترك الجميع فى الاحتفال بهذه المناسبة. قمنا بتحضير كسكسى باللحم الضانى مع خضراوات طازجة بالاضافة إلى السلطة. الفاكهة كانت موجودة فى الحدائق. وقامت النساء بتحضير الجاتوه والشاى والقهوة. ولقد دعوا جميع العمال الذين شاركوا فى بناء المدرسة. فقد وعدوهم بهذا الاحتفال من اليوم الأول لوضع حجر الأساس. ولقد شاركنا موظفو بلدية الكاليتوس فى الاحتفال أيضا وكذلك رجال الشرطة. والذين لم يستطيعوا أن يتركوا مكانهم أرسلنا لهم نصيبهم. الوليمة كانت مقامة فى فناء المدرسة الجديدة، لنبارك المكان كما تقول النسوة العجائز فى الكفر. بعد نهاية الوليمة وانصراف الرجال، بخرت العجائز جميع فصول المدرسة لإبعاد العين الحسودة والشيطان، وهو ما يحدث مع كل بناء جديد.

سكان حى بوناب كانوا سعداء من أجل بناتهم فى المقام الأول، أكثر من أولادهم . فلن يقلقوا عليهن بعد الآن، فلقد كانت الفتيات يخترقن الحقول صباحا ومساء وفى الشتاء للذهاب للمدرسة البعيدة ويعدن بعد أن يسدل الليل أستاره.

سكان حى بوناب كانوا جميعا مؤمنين بالله بتلقائية وبشكل طبيعى قبل وصول جيا. كنا نتبع ما تمليه عليه عاداتنا ليس أكثر، وبدون مشقة. فى هذا المجال، لم يكن أحد ينشغل بالآخرين. لم تكن هناك مساجد فى الكفر. الأشخاص القليلون الذين كانوا يحرصون على صلاة الجماعة يوم الجمعة كانوا يذهبون للصلاة فى الكاليتوس. كانوا جميعا من الشيوخ، وكانوا يستغلون هذه الفرصة للقاء أصدقائهم فى البلدة لم يكن سكان الكفر يهتمون بالسياسة، كان لديهم الكثير من العمل فى المزارع ولم يكن لديهم وقت ليضيعوه فى السياسة. كان بعض الجيران أعضاء فى «الجبهة الإسلامية للانقاذ» قبل حلها، لكن حتى المسئولون عن هذا الحزب كان نشاطهم مقصورا على المناطق الكبرى للبلدية ولا يحضرون عندنا.

كنت فاكهة الكفر. الجميع يقدرنى بصفة خاصة، فلقد كنت دائما أعاون النساء فى أعمالهن المنزلية. عندما تلد إحداهن، وهو ما يحدث كثيرا، كنت الأولى التى تذهب إليها لتعتنى بمنزلها وأطفالها. كانت النساء تثق فى قدراتى وامكانية الاعتماد علىّ فى أى وقت.

وبالنسبة للفتيات من سنى، أدخلت لهن وسائل جديدة للتسلية

قبل حضورنا، كان الذهاب للنبع لجلب المياه مقصورا على الأولاد دون الفتيات.

وبما أننى جئت من شيراجا، كنت بشكل ما فتاة مدنية، وأقل تعقيدا من الأخريات. ولقد ابتدعت الذهاب للنبع. أصبح جلب الماء بالنسبة لنا متعة، لحظات من اللهو والاسترخاء.

فى الحر، كنا نستغل ذلك ونستحم. كنا نغطس فى الماء بملابسنا. كنت - كالعادة - الرائدة. لكن مع الوقت بدأت الفتيات يقلدننى ، فى البداية اعتبرنى بعضهن متبجحة. لكن ما أن تلاشت لحظات الخجل الأولى حتى بدأن يتذوقن طعم هذه المغامرة البريئة ويغرمن بها كالأطفال.

كان الصبيان يتبعوننا من بعيد. عندما كانوا يتكتلون ليقطعوا علينا الطريق، كنا نتحدث قليلا معهم، فقد كنا نخشى أن يرانا آباؤنا. كانوا أحيانا يصفرون لنا من بعيد، كنا نغنى ونحن نسير وفى بعض الأحيان نرسل لهم رسائل قصيرة.

كنا نذهب لجمع بقايا الفاكهة الموجودة على الأشجار فى نهاية الموسم. كنا نجمع البرتقال، واليوسفى والخوخ والمشمش واللوز. ونأخذ هذه الثمار لنأكلها فى الطريق، والبعض منا كان يجمعها ويأخذها معه لمنزله.

ولقد علمت صديقاتى الكروشيه، البرودريه وشغل الإبرة على مفارش من القماش. وكنت قد تعلمت كل ذلك من عماتى فى شيراجا.

بعد أن ننتهى من أعمال المنزل، كنا نخرج جميعا ونجلس فى

مدخل أحد المنازل. كنا نفـرش سجادة على الأرض ونقضـى طوال فترة بعد الظهر.

اتذكر أمسـيات رمضان عندما كنا نظل فى الخـارج حتى يعود الرجـال من القـهـوة والنسـاء من زيارتهـن للجـيـران. كنا نغنى ونرقص ونتـبادل الحلوى التى تصنعـها كل منـا. كان شهـرا من السعادة والفرحة. وكنا ننتظره بفـارغ الصبر. فى احتفالات المولد النبوى، كنا نبقى فى الخارج حـتى الفجر. ولم يكن أهالينا يقولون شيئا. كان الأمر طبيعيا. كنا سعداء وكانت هذه المناسبات تمثل لنا أعيادا.

صـديقاتى كن شـريكاتى فى قـصتى مع أحـمد. كـانت هناك سلوى، حكيمة، جمـيلة، رشيدة وفتيحة. ولقـد انتهت حياة سلوى وفتيحة بالاغتيال وتقطيع جسديهما.

٤

قبل مجيئه لحي بوناب، كان أحمد يعيش مع أمه وإخوته في بن رمضان قرية صغيرة منعزلة من قرى ميتيجا. عائلته كانت أصولها من كيف الأخضر في جبال أطلس والتي تطل على مدينة مدية. هناك قضى طفولته. وطبقا لروايته فإن والده ووالدته تزوجا عن حب. لكن أباه كان ضعيفا أمام النساء وخاصة المتزوجات. كانت سمعته سيئة في بن رمضان. ولم يكن إخوته يحبونه من أجل ذلك. كانوا يعتبرونه عارا على العائلة. كانت له علاقات بنساء في مختلف القرى. أحد الأزواج المخدوعين، وكان صديقه، رتب لقتله. دعاه للطعام عنده، ووضع له السم في الأكل. توفي والد أحمد بعد ذلك بأيام بعد آلام مبرحة. كان إخوته يظنونه يعاني من تقلصات معوية، فلم يكن أحد يتخيل أنه تسمم. ولقد انتظروا عدة أيام قبل أن يقلقوا وذلك بعد أن بدأ يفقد شعره. نقلوه للمستشفى شخص الطبيب الحالة بأنها تسمم ولا أمل في انقاذه.

لم يتقدم أحد ببلاغ ضد الفاعل، رغم أن إخوته خمنوا من الفاعل. كانت العائلة تشعر بالعار والخجل. وكانت تفضل تكتم الأمر.

في هذا الوقت كانت أم أحمد حاملا في شهرين، كانت في انتظار طفلها الرابع الذى كان من نفس عمرى، ولقد ولدنا في نفس اليوم.

أحمد كان ترتيبه الثالث. في يوم دفن زوجها، طردها إخوته، فلم يكونوا يحبونها، واحتفظوا بالأطفال.

عانى الأطفال الثلاثة بسبب ابتعاد أمهم ووفاة والدهم. كانوا يشعرون أنهم مهملون من الجميع، بالاضافة إلا أن أعمامهم وزوجاتهم كانوا يعاملونهم كالعبيد بلا شفقة، ولم يرحموا طفولتهم وعاملوهم كأجراء.

كان الكبير في الثامنة من عمره وأحمد في الثالثة وكان يضرب يوميا لشقاوته.

كان أعمامه يرسلونه مع إخوته ليرعوا البقر والماعز. كانوا يبقون في المراعي طوال النهار دون طعام. وعندما يعودون في المساء، كان عليهم أن يرضوا بالفضلات المتبقية إن وجدت. وبالطبع لم يدخل الإخوة الثلاثة المدرسة كأولاد عمومتهم. كانت حجة الأعمام أنهم لا يستطيعون أن يرسلوا جميع أولاد العائلة للمدرسة، فيجب أن يرعى بعضهم الحيوانات.

تعلم أحمد مبادىء اللغة العربية بتردده لبضعة أشهر على مدرسة لتحفيظ القرآن. كان تعيسا مع أعمامه، حاول أكثر من مرة أن يلحق بأمه التى عادت لتعيش في بن رمضان عند اخوتها. كان أخواله لا يريدون أبناء اختهم، وفي كل مرة كانوا يبلغون جدهم لأبيهم ليأتي ويأخذهم. وكان الأمر ينتهي بالتاديب بعصا غليظة. مرة ظل جده ينتظره لمدة يومين، اختفى خلالهما أحمد في الغابة.

الجوع والبرد أجبراه على العودة للمنزل، عاد وهو يظن أن جده خرج، لكنه على أى حال امتص غضبه بالبكاء والاعتذار.

أحمد كان نشطا وماكرا. منذ طفولته المبكرة كان يحب الفلوس ويعرف كيف يحصل عليها. كان صغيرا، عندما عرض على مربى الماعز والبقر فى منطقته أن يعتنى بحيواناتهم إلى جانب تلك التى تخص أعمامه، مقابل مبلغ صغير من المال. لم يكن له ولاخوته إلا هدف واحد : جمع مبلغ من المال ليتمكنوا من اللحاق بأمهم فى بن رمضان، ليعيشوا معها بعيدا عن أخوالهم.

وما إن أتم الخامسة عشرة، حتى شعر بأنه قوى بالقدر الكافى ليقوم بالمغامرة كان أصغر إخوته، وبرغم ذلك كان هو الذى حرضهم على اتباعه.

فى يوم وصل ثلاثتهم عند أمهم. هذه المرة أخوالهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا مع شباب وليس أطفالا. ولم يتجاسروا على إعادتهم لأعمامهم، بالاضافة إلى أنهم لم يأتوهم بيد فارغة، بل كان معهم زادهم لبعض الوقت. أحد أخواله اعطاهم عشة فراخ ليعيشوا فيها مؤقتا. آل شعبانى كانوا عائلة عاملة حتى أمهم. أخوهم الصغير الذى كان جنينا عند وفاة والدهم أصبح الآن مراهقا. كانت الأم تقوم بصنع الحلوى التى يذهب أولادها لبيعها فى سوق بن رمضان. كما كانت تربى الدجاج لبيع بيضه لسكان القرية، والأولاد كانوا يعملون فى أسواق الجملة. كانوا أقوياء ونشطاء وكان الوكلاء يقدرون مثابرتهم فى العمل. كانوا ينفقون قليلا ويدخرون كثيرا. استطاعت العائلة أن تدخر بعض المال، لكنه لم يكن كافيا لشراء أو استئجار منزل. فى يوم، ابتسم الحظ

لأحمد، عثر فى الشارع على محفظة تحتوى على ٣٠ ألف دينار. البعض قال إنه سرقها، لكنه أقسم بأغلظ الإيمان أنه وجدها. هذا المبلغ بالإضافة إلى مدخرات العائلة سمح لهم بشراء منزل فى حى بوناب مجاور لنا بخمسين الف دينار.

لم يكن من الممكن شراء منزل كامل بهذا السعر. لقد اشتروا هيكلا لمنزل كبير من عدة غرف، كان عبارة عن بضع حوائط، فلا أبواب ولا شبابيك فقط فتحات.

كثيرون كانوا يشترون مثل هذه المساكن، لأنها أقل سعرا ولوجود أزمة فى المساكن. المشترى كان يشطب منزله على ذوقه وحين يستطيع.

فى حى بوناب استمرت الأم فى نشاطها التجارى. كانت تقوم بكثير من الاشياء، كانت تصنع السجاد وتبيعه بالإضافة إلى البيض والحلوى.

بفضل تجارتها الصغيرة استطاع أولادها شراء شاحنة، استخدمها الابن الأكبر حولوا خط نقل مشترك ما بين حى بوناب وبراقى. كما حولوا بعد ذلك واحدة من الغرف التى تطل على الشارع لمحل بقالة كان يديره الأخ الثانى. اشتروا بقرتين، وبدأت الأم فى بيع اللبن والزبد واللبن الرايب المصنوع بالطريقة التقليدية والذى كان يباع بثمن مرتفع فى المدينة.

كانت العائلة كلها تعمل، والأم تحتفظ بالنقود. وكلما اشترت أملاكا تكتبها باسم الابن الأكبر كما جرى العرف عندنا. شيئا فشيئا أصبحوا من أكثر العائلات يسرا فى الكفر واستكملوا بناء منزلهم وأثثوه بشكل جميل ومريح. الخلاصة أنه لم يعد ينقصهم

شيء. الابن الأكبـر بلال كان تقيا لـكنه أناني. كان يريد كل شيء لنفسه فلم يكن يقتسم شيئا مع إخوته. كان المفضل لدى أمه، التي كانت تدعمه في كل ما يفعل.

لكنه لم يكن شريرا مثل الأخ الثاني نور الدين الذي آذاني كثيرا بعـد ذلك. والاثنان سيـقتـلان على يد جـماعـة الدفاع الشـرعي، وسترمى جثتاهما في أحد الأودية.

-٥-

هنا، فى حى بوناب، جـاء أحـمد ليـسكن مع عـائلتـه فى ربيع عـام ٩٢. منزل والدى كان يحـمل رقم (١) ومنزل آل شـعبـانى رقم (٢). كان أحـمد فى الثامنة عـشرة من عمـره ذا عقل راجح. المعاناة التى عاشها فى طفولتـه جعلته يكبر قبل الأوان. ولقد كنت فى السادسة عشرة من عمرى.

كان متشردا صغيرا، لكن ذا سحر خاص. غالبية السكان كانت تحبـه. كان سلوكه غـير معتـاد فى كفرنا، فـمثلا كـان يغازل كل فتيات الجـيران. كان الآباء مصدومين من هذه الجـرأة. فلقد كانوا متحفظين، يرون فى هذا السلوك خرقـا لقواعد الأخلاق. لكن أسوأ أخطائه كـانت السرقـة. كان يقـضى وقـته فى عـمل أشيـاء غيـر مفـهومـة. كان الجمـيع يلاحظونه طول الوقت : الآباء خـوفا على بناتهم، والمزارعـون خوفـا على ثمارهم. نجح فى أن يشـرك أخى الصغـير فى هذه الأعـمال غـير المشـروعة. فهـو الذى أدخل هذه العادات السـيئة من سـرقة واختـلاسات للكفر، قـبله لم يكن أحد يفعلها.

عـائلة شعـبـانى كانوا من الذكـور. وبماأن جلب الماء كـان من اختصاص الفتيات، فلقد ذهبت، تبعا لنصيحة أمى، أعرض خدمتى

على الأم. كانت هذه العادة بين الجيران، أن يساعد بعضنا بعضا.
عندما طرقت الباب، فتح لى أحمد. اعتقد أنه اعجبنى لحظتها ولكنى لم أظهر ذلك. كانت أول مرة أشعر فيها بهذه الاحاسيس شعور غريب وجميل فى نفس الوقت. بعقلى كنت أرفض هذه المشاعر. كانت شيئا سيئا عندنا، أن تفكر فتاة فى شاب بهذه الطريقة. تربيت على أن البنت يجب أن تحافظ على شرفها ولا يمكن كسر هذه المقدسات.

أظن أنى تركت عنده نفس المشاعر، لأنه حاول أن يجانبنى أطراف الحديث، وكانت المرة الأولى التى يرانى فيها. لم يضايقنى ذلك بل أضحكنى لكن كان لابد من أن أرفض هذا السلوك من جانبه خوفا من أن أعامل كفاجرة لو عرف الجيران.

لتفادى ذلك ذهبت وحكيت ما حدث لأخيه بلال الذى عنفه بشدة. كان بلال يتحمل مسئولية المنزل ويحرص على أن يقيم علاقات طيبة مع الجيران. فلم يكن يريد أن تبدأ حياة أسرته فى حى بوناب بمعارك ومشاحنات. لم أقص ذلك على أبى، لأننى لم أكن أريد قطع الجسور مع أحمد. وعندما كان أخوه يؤنبه كنت أضحك فى أعماقى.

كنت أتذكر دائما لقاءنا الأول بحنين ومتعة. فمنذ ذلك اليوم، لم أتوقف عن التفكير فيه. بعد سكن عائلة شعبانى بشهرين، جاءت عائلة أخرى لتسكن بالقرب منا، من ضمنها فتاة أكبر منى بعام.

كانت تسمى نعيمة، ولقد كانت جميلة جدا وظريفة. وبسرعة أصبحنا صديقتين. وثقت فيها وأطلعتها على حقيقة مشاعرى تجاه أحمد، ظنا منى أنها يمكن أن تساعدنى فى عقد صلة معه.

لكن فى يوم وجدتهما معا. هى فى نافذة منزلها وهو بالخارج. كانا يتحدثان ببساطة وود ، كانت أول صدمة لى فى الحب.

واجهت نعيمة بما شاهدته فلم تنكر. كنت تعيسة، أبكى طوال الوقت لحسن حظى أن نعيمة كانت متقلبة مثل أحمد. فقبل وصولها لحى بوناب كان لها صديق آخر يسكن فى الكاليتوس، ولقد ظلت على صلة به كانا فى نفس المدرسة فى براقى. نعيمة لم يكن لها نفس سلوك فتيات الكفر. كانت ترتاد كل الأماكن معه. ذهبت معه إلى شريعة، والسينما فى العاصمة والشاطىء.. الخ. وانتهى الأمر بأن عرف أحمد وهجرها سريعا.

كانت هذه القصة فى صالحى. فلقد استعدت الرجل الذى أحببته. هذا الموقف جعلنى أفهم حقيقة مشاعرى تجاهه. قررت أن أخبره بحبى قبل أن تأتى فتاة أخرى وتأخذه منى.

وجدت طريقة سهلة : فى يوم كان يمر من أمامى، تحركت لألفت انتباهه، نظرت إليه بثبات وابتسمت بدلال. فهم وبسرعة تصرف كتب لى كلمة، قال فيها أننى أعجبه كثيرا وأنه يريد أن يعمق ويقوى علاقتنا وأجبته سريعا بالموافقة، بشرط أن لا يعرف أبى وأخوتى أو الجيران.

ظل ذلك مشكلة يجب حلها، كيف أراه دون أن أثير الشبهات؟

علمت أن والدى سيتغيبان بعد يومين، اتفقت معه على لقاء فى ذلك اليوم. تحدث معى عن الزواج. فى اليوم التالى ذهب يطلب يدى من أبى، الذى لم يأخذ طلبه على محمل الجد، فلم يكن يحب فيه هذه الخطيئة التى لا تغتفر : السرقة. وأنا كذلك ولقد صارحته بذلك، حتى أننى وضعت شرطا لعلاقتنا وقلت له : لو كنت تحبنى

توقف عن السرقة، لكن بلا فائدة، فلقد استمر كسابق عهده. عندما وجدته لا يستطيع، حاولت أن أجد له اعـذارا وظروفا مخففة. قلت لنفسى أنه تربى دون عـائلة يتمتع فيـها بالرعاية، بل اعتـمد على نفسه. كان طبيعيـا أن ينشأ سيىء التربية. فى كل الأحوال، رفض أبى طلبه للزواج منى، دون أن يكلف نفسه مـشقة دراسة طلبه أو الحديث معى.

لم يمنعنى ذلك من الاستمـرار فى رؤيته. كنا نرتب لقاءاتنا فى أماكن مـنعزلة فى حى بوناب. وعندمـا كانت تتـيسر الأمـور، كنا نذهب لنزهة فى براقى. صـديقـاتى كن على علم، وكذلك أخـوتى البنات الصـغيـرات. عندما كـانت إحـداهن تراه يمر، كـانت تأتى وتقـول لى لتـبلغنى أيـن يمكن أن أجـده. لم يكن ذلك بعـيـدا عن المنزل، كنت اتبعه سريعا لنختلس لحظات معا. كنا نرى بعضنا فى الخفاء، لكننا كنا سعداء بذلك.

كانت لنا جارة تراقـب الجميع، كانت غيـورة وحقودة. فى يوم فاجأتنى مع أحمد. ذهبت وحكت لأمى، التى كانت تجهل كل شىء عن هذه العـلاقـة. فـقدت أمى صـوابهـا وصـرخت فى وجـهى : «أتواعـدين الرجـال، ولم تجـدى إلا هذا المتـشـرد، هل تريدين أن تجلبى لنـا العـار؟!» وضـربتنى. منذ ذلك الـيـوم، أسندت لى كل الأعمال المنزلية الشاقة التى لم أكن أقوم بها من قبل. الشىء الذى لم أحتمله، هو أنها منعتنى من الخروج ولم أعد أرى أحمد.

أمـام هذه المعـاملة القـاسـيـة، حـاولت أن أتـلطف وأتملق أمى شارحـة لها الحـقيقـة. لكنها لم تفـهم لماذا دون شباب الـكفر كله اخـترت هذا الشـاب غيـر المناسب، الذى يسرق فـاكهـة الجيـران

ليشترى حذاء ماركة «ريبوك» وبنطلون «جينز».

لكنها وجدت أن نصائحها لا تجدى، وانتهى بها الحال بالاقتناع بأننى أحبه فعلا وأنه ليس بإمكانها فعل شيء، ولقد كنا دائما صديقتين ففهمت عاطفتى فى النهاية، سمحت لى أن أراه بشرط أن احافظ على شرفي. بعد أن لاحظت تغيرا على سلوكى. فعندما كان يتأخر عن رؤيتى، كنت أصبح كالمجنونة أبكى بدون سبب وأفعل أى شىء.

فى يوم كانت أخباره منقطعة عنى منذ أسبوع، دون وعى، أخذت المقص وقصصت شعرى بلا مبرر وبشكل عشوائى.

كان أحمد يتغيب كثيرا، فعمله كحمال فى سوق الجملة لم يكن مجزيا بالنسبة له. كان يريد أن يكسب نقودا أكثر وبسرعة. كان لديه موهبة التجارة، بدأ مع أصدقائه فى السفر بعيدا عن حى بوناب حتى وصل إلى مناطق تبعد ٣٠٠ كم متر شرق الجزائر العاصمة، ليشترى سلعا وبضائع مهربة يعيد بيعها. من هناك كان يأتى بأدوات مطبخ، ملابس، منتجات غذائية.. الخ كلها صنعت فى الخارج. سافر أيضا إلى ليبيا، لم يكن عنده جواز سفر، فقط البطاقة الشخصية ورخصة القيادة. كان يمر عبر الحدود الجنوبية للبلاد ويحتال ليصل إلى هناك. من ليبيا، كان يحضر نفس المنتجات بالإضافة إلى الحلى، أدوات التجميل وأحيانا السيارات ويعيد بيعها بحالتها أو كقطع غيار.

فيما بعد أصبح يجلب الأسلحة والمفرقعات.

- ٦ -

علاقـتى مع أحمد اسـتمرت فى هدوء، ازدهـرت تجارته، لكنى لم أطلب منه أبدا أن يمنحنى شـيئا منهـا. لم أكن أريده أن يظننى مـادية مـثل الأخـريـات وهو لم يفكر فى أن يفـعـل ذلك. الهـدية الوحيـدة التى أعطانى إياها قبل الزواج، كانت خـاتما من النحاس، بعدما لاحظ أننى لا ألبس أى حلى.

قبلتـه بفرحـة، كان غاليـا عندى. كان يرسل لى خطـابات، بها أبيـات من الشعـر وكل ما لم يتـمكن من قـوله مبـاشرة. وأيضـا شرائط تسـجيل للمـغنى المفضل لديـه شاب حسنى. فى كـل لقاء بيننا، كان يغنى لى إحدى أغانيه. كان صوته جميلا، وكانت أغنيته المفضلة «طال غيابك يا غزالى».

كان أحمد متهورا، عندمـا يقرر أن يفعل شيئا لم يكن يفكر فى عواقبه.

ذات مساء، جاء يدق على نافذة حجرة نومى التى اتقاسمها مع أخواتى البنات وتطل على الشارع. كان يعرف أن أبى يعمل مساء، ففى هذه الفترة كان حارسا ليليا فى أحد المصانع.

استغل غيابه ليرانى. كان يعرف أننى أنام بجوار النافذة. عندما دق على النافذة لم أستيقظ. كسر الشيش ليفتحه، كان الجو صيفا، وزجـاج النـافذة غـير مـغلق أدخـل سـلكا طـويلا ليـوقظنى به.

لم يستطع أن يدخل لوجود حديد على الشباك.

استيقظت بعد حين - فنومى ثقيل - مذعورة متسائلة : ماذا حدث؟ وعندما استوعبت الموقف ثرت ثورة عارمة عليه وأطلعته على المخاطر التى كاد أن يعرضنى لها بسبب تصرفه الأهوج. أجابنى ببساطة أنه تصرف بتلقائية ولم يفكر فيما يمكن أن يحدث.

منذ ذلك الحين، كان يأتينى كل ليلة بعلمى ورضائى.

حتى جاء اليوم الذى فاجأه فيه أخوه نور الدين، الذى لامنى واتهمنى بأننى أحاول أن أوقع أخاه فى الفخ. استغل خوفى من فكرة معرفة والدىَّ بهذه الزيارات الليلية لأحمد وطلب منى أن أغنى. رفضت فهددنى بأنه سيثأر منى يوما. ولأننى أعرف تسرع أحمد وعصبيته فلم أخبره بسلوك نور الدين، خوفا من أن يتشاجر معه بسببى.

لاحظ أننى تغيرت. فى الحقيقة كنت خائفة أن يخبر نور الدين أخوتى بما حدث، فبالرغم من أنهم اصغر منى إلا أن لهم سلطانا علىّ.

بعد ذلك بعدة أيام، سبب لى نور الدين مشكلة أخرى أربكت حياتى كلها. كنت قد أرسلت رسالة لأحمد، نسيها فى جيب بنطلونه ووجدها نور الدين.

كانت هذه هى الفرصة التى ينتظرها ليثأر منى. ذهب فورا وأطلع أمه على الخطاب، هذه الأخيرة عملت فضيحة. وقفت على عتبة بابها ووجهت حديثها لوالدىَّ بصوت مرتفع يسمعه الدانى والقاصى : «لموا ابنتكما، أعرف أنكما تريدان أن تأخذا أحد أولادى بأى ثمن، وعندى الدليل».

كنت المذنبة الوحيدة. أنكرت كل شيء أمام أبى، وقفت أمى فى صفى لكن الموضوع انتشر فى الكفر بسرعة رهيبة. كان اللوم من نصيب أسرتى، منذ ذلك اليوم منعنى أبى من الخروج. ظللت ستة شهور دون أن أكلم أحمد. ولقد اختفى ثلاثة شهور، اختبأ خلالها عند أخواله ثم عاد وكأن شيئا لم يحدث. أرسل لى خطابا مع ابنة جارتنا، يقدم اعتذاره عما حدث ويوضح أنه ليس له يد فى الموضوع.

لم أرد على رسالته. ذات مساء، كنت فى فراشى على وشك النوم. عندما دق على نافذتى كسابق عهده، فخمنت أنه هو، تظاهرت بأننى لم أسمع. وشاءت الصدف، أن يخرج أخى فى هذه اللحظة. خوفا من أن يشاهده، قفز أحمد من فوق السور ووجد نفسه فى فناء منزلنا. سمعت أمى التى لم تكن قد نامت بعد، هذه الضوضاء وأسرعت إلى الفناء ورأته. لسوء حظه عندما قفز من فوق السور، وقع فى حوض فيه بعض الصحون القذرة مما أحدث جلبة أيقظت كل من فى المنزل.

هذه المرة لم تستطع أمى أن تتستر علىّ، أخوتى الغاضبون قرروا أن يقصوا كل شيء على أبى. عندما عاد منْ عمله فى صباح اليوم التالى، كانت أمى البادئة، فلقد فضلت أن تقص عليه الحكاية بدل اخوتى، الذين ربما أضافوا إليها تفاصيل من خيالهم.

فى هذا اليوم شعر أبى بالعار، وأن أحمد لا يحترمه وقال لأمى : «إذا استمر الحال هكذا، هذا الشاب وهذه الفتاة سيصماننا بالعار، يجب إبعادها من هنا.» وبدون أن يكلمنى أو يعاتبنى، اصطحبنى بعد ذلك بساعات عند أعمامى فى شيراجا. كان متألما بسببى كنت أشعر بالخزى أمامه، كنت أفضل أن يوبخنى أو حتى

يضربنى بدل هذا الصمت الثقيل المخيم علينا. كنت المفضلة عنده وها أنا ذا أخيب رجاءه.

بقيت سنتين فى شيراجا. كان أعمامى يراقبون كل تحركاتى. فلقد أصبحت مصدر خجل للعائلة. لم أر أحمد طوال هذين العامين. كنت أعرف أخباره من حين لآخر. جاء أبى يوما ليقول لى أنه طلبنى رسميا للزواج.

ولقد تقدم مرتين من قبل، وفى كل مرة كان طلبه يقابل بالرفض.

بعد أن أصبح عضوا فى جيا، بذر أحمد الرعب فى الكفر.

ظل أبى معارضا لفكرة زواجه منى، لكنه أعلن ذلك بلين هذه المرة فلقد كان مثل الجميع يخاف جيا عندما جاء ليطلعنى على الخبر، تحدث عن مخاوفه لعمتى، فالأب لا يتحدث فى هذه الأشياء مع ابنته. قال لها : « لو لم أوافق، سيأخذها غصبا عنى» فبدلا من أن يمرغ جبينه فى التراب، فضل أن يستجيب لرغبة أحمد. انهارت عمتى فلقد كانت تحبنى وتكره جيا. لكن فى الحقيقة فإن أكثرنا جسارة لم يكن يجرؤ على مواجهة جيا.

رغم مرور عامين على إبعادى عن أحمد، إلا أن ذلك لم يغير من مشاعرى تجاهه. كنت سعيدة جدا بفكرة رؤيته من جديد. لم أفكر فى خلاف ذلك. لم أكن اعتقد فيما يقال عنه. كان الناس بما فيهم أخوتى يحكون لى أن أحمد وزملاءه أصبحوا إرهابيين. كنت أظن أنها محض أكاذيب يقصونها لكى أنساه.

يوم سبت، جاء أبى وقال لى : «لو كنت موافقة، حضرى نفسك سآتى لاخذك يوم الاربعاء».

ولقد فعلت ذلك بفرحة كبيرة.

- ٧ -

من خلال زجاج نافذة السيارة، التى كانت تقلنى مع أمى لحى بوناب، شاهدت أحمد مع أصدقائه. كانوا يبنون منزل المستقبل. فى هذه المنطقة، كان البناء عشوائيا وبوضع اليد، ليس ضروريا أن تمتلك أرضا أو تأخذ تصريح مبانٍ. يكفى أن تقيم حوائط على أرض خلاء لتصبح لك.

رؤية هذا الهيكل غير المكتمل ملأنى سعادة. بعد ذلك بثلاث أيام تزوجنا فى البلدية، وعاد كل منا لمنزل أسرته.

الاحتفال التقليدى بالزواج سيتم بعد يومين. أحمد حضر عندنا، فلقد أصر على أن يكلمنى على انفراد رغم استياء أبى. بالنسبة له الزفاف لم يتم بعد، وحتى الآن أنا تحت رعايته.

لم يهتم أحمد باعتراض أبى، الذى انتهى به الحال للموافقة. كان يريد أن يطلعنى على بعض التغيرات التى حدثت له منذ انضمامه لجيا. لم يكن لديه الوقت من قبل ليفعل، ولقد صدم بالتغير الذى طرأ علىّ. كانت إحدى قريباتى قد قامت بتزيينى استعدادا للزواج. صبغت شعرى وصففته، وقامت بتزجيج حواجبى وتجميل وجهى بالمساحيق عندما شاهدنى أحمد على هذا الحال، صرخ مستنكرا، ثم بدأ فى تلاوة أدعية للاستغفار لله.

فوجئت برد فعله، قال لى مرة أنه يحب المرأة الطبيعية، لكن لم أكن أظن أن الزينة يمكن أن تزعجه لهذا الحد. سألنى : «لماذا فعلت هذا؟» أجبته : «ليس أنا، بل الماشطة، كما أن كل العرائس يتجملن يوم عرسهن». لم يكن له نفس الرأى، ولقد نبهنى لذلك بلهجة صارمة : «من الآن فصاعدا لن تذهبى للحمام العام، ولا لمصففى الشعر، وبالنسبة للزينة، هذه آخر مرة أراك وعلى وجهك هذه الأصباغ».

كنت مندهشة لفكرة تحريم الحمام العام. شرح لى ذلك : «الحمام العام معصية، فالمرأة لا يجب أن تتعرى حتى أمام امرأة أخرى». ثم امرنى بوضع الخمار حتى لا يرى الصبغة على شعرى.

هنا بدأت استرجع ما قيل لى عنه وأتساءل عن مدى صحته.

لكى نتخلص من هذا التوتر، طلبت منه أن يغنى إحدى أغنيات شاب حسنى كما كان يفعل وقلت له : «هل تعرف لقد بكيت كثيرا عندما اغتيل». أجابنى بنبرة حادة : «أنا أمنعك من البكاء على الطاغوت لقد استحق الموت بسبب أغنياته، فلقد ضلل الشباب عن الصراط المستقيم».

كان كلامه واضحا، ذكرته بالماضى، عندما كان يضع سماعات الكاسيت على أذنيه ليسمع أغانى معبوده شاب حسنى وكان يحفظ أغانيه عن ظهر قلب.

قاطعنى بحدة : «فى هذا الوقت كنت أعيش فى جاهلية».

لم يعد لدى شك فى أن كل ما قيل عنه صحيح. فبعد عامين من البعاد، وجدت أمامى رجلا مختلفا تماما عن هذا الذى تركته فى ذلك الحين.

لم أستطع أن أعبر عن خيبة أملي. كنت أتخيل عودتنا ولقاءنا بشكل آخر. انتابتني المخاوف. ما إن خرج حتى أطلقت لنفسي العنان وأخذت في البكاء والعويل، جاءت أمي مهرولة لتستطلع الأمر. اطلعتها على اكتشافي قالت لي : «لقد حذرناك، لكنك كنت تريدينه، ليس أمامك إلا أن تتحملي اختيارك».

شعرت أنني ارتكبت خطأ كبيرا، لكن رغم كل الدلالات، كان عندي أمل في أن اتمكن من تغييره بعد الزواج. كان الشيء الأهم ، أن أصبح زوجته وأعيش معه. مهما حدث، لم أفكر أبدا في أن أهجره. في مساء الاحتفال التقليدي، أحمد أخذ من أبي بعض ألواح الصاج المعرج التي كان يحتفظ بها، ليستخدمها في تسقيف الحجرتين اللتين بناهما ليكونا منزل الزوجية. نقص الراحة والرفاهية لم يكن يقلقني، أعطاني مهرا ٣٥ ألف دينار، اشتريت بها ملابس وسلسلتين ذهبيتين. فلقد رأت أمي أنه لا يمكن للعروس أن تذهب لبيت زوجها دون حلي. بعد شراء هذه الاشياء لم يتبق شيء لمصروفات حفل الزفاف. أبي لم يشارك بمليم، فلقد كان معارضا للزواج. مرتبه ككناس لم يكن يسمح له بادخار شيء، لكن بالتأكيد كان يمكنه الاقتراض من إخوته.

أمي، هي التي نظمت الحفل الذي بدا معقولا. الجيران هم الذين أتوا لنجدتي، بعضهم صنع لنا الحلوى، وآخرون ارسلوا لنا اللحم للوليمة. في يوم العرس، كان المفروض أن يأتي أحمد وإخوته ليأخذوني في الساعة الحادية عشرة صباحا، ولقد انتظرت حتى الثانية ظهرا ولم يظهر أحد. أمه كانت ضد الزواج ومنعتهم من الحضور.

بالنسبة له حضر مع أصدقائه في ثلاث سيارات جديدة، اثنتان

مرسيدس فانتوم، والثالثة لا أعرف نوعها لكنها رائعة كالأخريات.

عندما سألتـه عن سبب تأخره، قال إنه كان مع الجمـاعة، ولقد تأكدت أن هذه الجـماعة، التى أهمل زواجـه من أجلها. مهمـة جدا بالنسبة له.

منذ اليـوم الأول، أظهرت لى أمــه عداوتها، فـلقد كانـت تحمل ضغينـة لى منذ آخر مرة، وأقسـمت فى ذلك الوقت أنها لن يكون لها صلة بى أو بعائلتى. لذلك لم تحضر لتصحبنى من منزل أهلى لمنزلها كما جرت العادة. أرسلت بدلا منها زوجة ابنها البكرى.

لم أهتم، وتصورت أن ذلك سيتغير مع الأيام.

أخيـرا ذهبت لمنزل الزوجـية. فى حـجرة النوم وجـدت بعض شرائط الكاسـيت على المائدة. كان ذلك مصدر سـعادة لى. فكرت أن أحمد لـم يتغير كثـيرا ما دام يسمع المـوسيقى كسابـق عهده. وضعت أحد هذه الاشرطة فى جهاز التسجيل، كانت آيات قرآنية.

عماتى اللواتى كن فى صحبتى تعجبن، كن يرتدين، كالعادة فى هذه المناسـبات أثوابا مكشـوفـة الصدر، كنا فى شـهر أغـسطس والجو حـار. لكن ذلك كان ممنوعـا لدى الجمـاعة. وخـوفا من رد فعل غير متوقع من جانب أحمد وضعن غطاء الرأس.

كنت مـتشككة من تحـوله، لكننى تأكـدت. بدأ بى. كنت أرتدى ثوبا جميـلا مثل كل العرائس. شعرت أن نساء عـائلته مندهشات من ردائى، ويجدن سلوكى مختلفا عن الإسلاميات.

ثم وصلت إحـدى قريبـاته وتدعى حـورية وقـالت لى بلهجـة آمرة : «لا يجب أن ترتدى أثوابا قصيرة ولا أن تصبغى شعرك أو تضعى مساحيق على وجهك ؟».

عرفت فيما بعد أن حورية تعمل مع الجماعة. ولقد أنبتني لأنني رسمت عصفورا على أحد المفارش التي صنعتها لمنزلي الجديد. وقالت لي : «لقد فعلت معصية برسمك كائن حي، يوم القيامة سيأتيك هذا العصفور ويطلب منك أن تهبيه الحياة».

أعترف أنها نجحت في التأثير عليَّ. بدأت في طرح أسئلة على نفسي ولكني لم أجد إجابة عليها.

في المساء جاءت حماتي لتسلم عليَّ. كانت التقاليد عندهم أن تحتفظ العروس بالطرحة على وجهها في منزل أسرة العريس، حتى يأتي أحد أخوته ويرفعها.

انتظرت دون جدوى. أخوته كانوا ضد زواجي بسبب ما حدث بين العائلتين من قبل. قام أحد أخواله برفع الطرحة بدل أبناء أخته.

بسبب موقف حماتي، عندما أحضرت لي القهوة، خافت أمي أن تكون قد وضعت فيها شيئا مضرا فشربتها هي.

حضر أحمد متأخرا، كان يرتدي بدلة وعليها «برنس» ملك صديق له تزوج قبلنا بأسبوع. قال لي أنه تردد في ذلك، فكان يفضل أن يرتدي الجلباب، ويكحل عينيه وينظف أسنانه بالسواك ويضع زيت الزيتون في شعره والحنة في يديه وقدميه تمثلا بما كان يفعل الرسول ﷺ، ثم أضاف : «بما أنك لم تريني بهذا الشكل من قبل، فكرت أنك ربما تنزعجين من رؤيتي هكذا، لذلك ارتديت الزي المعتاد».

سألني : «هل صليت الظهر» وأجبته بالنفي وحجتي أنني وضعت طلاء أظافر ولا يجوز الصلاة به. نظر لي بتجهم وقال :

«مادمت لم تصلى الظهر فأنت لم تصل العصر. أنت نجسه كيف تواجهيننى وأنت على هذا الحال؟!».

كان على وشك أن يبدأ خطبة طويلة، لكنه تراجع، عندما شعر أنه ليس الوقت الملائم، حاول أن يبدو رقيقا وقال : «ليس خطأ جسيم، بالنسبة لطلاء الأظافر لك عذرك فهو يوم زفافك، يمكن أن تصلى به. أجبته باستحياء أن ما يقلقنى أكثر، خروجى للفناء للوضوء خوفا من أن أفسد زينتى، فعرض علىَّ حلا وهو أن أتيمم ولقد فعلت.

صلى بى جماعة، استمرت الصلاة ما يقرب من ساعتين بدون توقف، لم أعد أستطيع المواصلة. فى النهاية شعرت بإرهاق شديد وألم فى ركبتى وبرأسى يدور. كانت هذه هى طريقة الأخوة فى الصلاة.

بعد الصلاة، أخذ مصحفا كان موجودا على المائدة، وطلب منى أن اقرأ أجزاء منه، كان ذلك كثيرا بالنسبة لى، شعرت أنه يسخر منى. عندما أدركت أنه كان جادا غشيتنى كآبة فالعرسان يوم زفافهما يسمعان موسيقى ويرقصان. لكنى لم أقاوم. قرأت بعض الآيات ثم توقفت. شعر بذلك فقال لى : «بالتأكيد أنت متعبة، ربما تريدين أن تنامى؟».

أخيرا، ذهبنا للفراش. كنت أنتظر هذه اللحظة منذ وقت طويل. ولكنها كانت قصيرة. فقبل الفجر، استيقظ أحمد وقال لى وهو خارج : «عندما أعود، أريد أن أجد الإفطار معدا للأخوة ولى . ».

ـ ٨ ـ

يوم زفافى ترك فى نفسى طعما مرا. كنت أصلى منذ سنوات بدون أن يطلب منى أحد ذلك. كنت مؤمنة بدون تطرف. بصراحة، لم أكن أتصور أن أقضى ليلة زفافى فى الصلاة.

صديقاتى اللاتى تزوجن قبلى، قصصن علىّ شيئا آخر.

فى الصباح، عندما طلب منى أحمد تحضير الفطور للأخوة، كانت خيبة أملى مضاعفة.

كنت أحاول أن اقنع نفسى أن كل هذه الأشياء التى صدمتنى وفوجئت بها ليس لها أهمية.

حاولت أن أرفض بحجة أننى متعبة وأننا نمنا متأخرين. رد ببرود : «لا أريد حججا، هذه واجباتك وعليك القيام بها، وإلا فإن الأخوة سيسخرون منى ويقولون أننى تزوجت امرأة غير مسئولة ومدللة».

تصورت أنه طلب منى ذلك ليثبت براعتى أمام أصدقائه، لكن بعد ذلك عرفت أنه واجب، كانت المبالغة فى الحماس الذى يبديه أحمد لأوامر الجماعة هو الذى جعله يفوز بالإمارة بعد ذلك.

فى المساء، كلمنى عن الاخوة وعما ينتظره منى فقال : «الآن تزوجتنى ودخلت القبيلة، أصبحت أختا فى الإسلام. عليك أن

تحضرى لهم الطعام وتغسلى لهم الملابس. سيكون ذلك وسيلتك للمشاركة فى إقامة دولة إسلامية فى الجزائر تحارب الطاغوت، فلقد أمرنا الله بذلك. يجب أن نساعد الاخوة حتى يكون لديهم القوة للقيام بذلك. كل من يساعدهم ويساندهم، فإنه بذلك يشارك فى المعركة. عندما أصبح أميرا ستصبحين أم المؤمنين، وستكونين فى عداد المختارين عند الله».

ولقد نجح فى إقناعى. لم يطل الوقت به ليجعلنى أوافق على كل ما يقترحه. من وجهة نظره، فإن المسلمين أصبحوا تعساء منذ إلغاء الخلافة، ويجب إعادتها ليعود للمسلمين مجدهم وسعادتهم.

المجاهدون، فى كل مكان على الأرض يعملون من أجل ذلك. بفضل الجماعة الإسلامية، فإن إعادة الخلافة ستبدأ من الجزائر.

ما إن تتأسس الدولة الإسلامية هنا، ستتحرر فلسطين، فلا يجب أن نعتمد على الطاغوت الذى يحكم حاليا البلاد العربية ليحررها.

فيما بعد، هذه البلاد نفسها ستقيم نظاما إسلاميا الواحدة تلو الأخرى. وسينصهرون جميعا فى أمة واحدة. بذلك نستطيع أن نقهر أعداءنا. وبالنسبة للجزائر يجب تطهيرها من الفساد، على حد قوله : «يجب أن نتخلص من رؤوس الفتنة» وكان أحمد يستخدم عبارة : «يجب أكل العنقود عنبة.. عنبة».

أول طابور الضحايا سيكون هم العسكريون، ثم الصحفيون فيجب إقصاؤهم وكذلك جميع المثقفين لأنهم - على حد قوله - «يحاربوننا بكلماتهم» ثم أصحاب المناصب الكبرى والمقربون إليهم. وهذه هى الوسيلة الوحيدة لإقامة الخلافة. لنتمكن بعد ذلك

من الحياة التى نشاهدها فى المسلسلات التليفزيونية. أفزعنى حديثه، وفتننى فى ذات الوقت. فقتل كل هؤلاء بدا فى منتهى الخطورة. لكن فكرة أن نعيش يوما ما الحياة التى نشاهدها فى مسلسلات التليفزيون بدت خلابة.

كنت أسأل نفسى : بدون المثقفين هل يمكن لجيا أن تحكم؟ كانت الاجابة بالنفى وبرهان ذلك، أنه فى البداية كان عدد كبير من الناس معهم، لكن جهلهم منعهم من الاحتفاظ بهذا الرصيد.

كانوا يقومون بأشياء لا يقبلها الناس ولا يفهمونها، مثل حرقهم المدارس. كان هدفهم أن يعم الجهل الجزائر، لكن الجزائريين لم يقبلوا أن يكون أولادهم جهلة. حرق المدارس كان يؤلم الناس بشدة، خاصة أنهم كانوا يحرقون المدارس الموجودة فى الأحياء الفقيرة. وليبرروا أفعالهم، كان المتطرفون يعلنون أنهم ضد التعليم الحالى لعدم اهتمامه بتدريس القرآن وتعاليم الإسلام، ويسمح للفتيات بالسفور، فيرتدين «البنطلون»، ويذهبن للمدارس بشعر مكشوف. كانوا يريدون من الفتيات التحجب، وكانوا يعلقون فى أماكن تجمعهم يافطات كتب عليها عبارة : «غطى شعرك وإلا تعرضت لبنادقنا» ولقد تحجبت النساء فى هذه الأحياء حتى الفتيات الصغيرات. ومن تجاسرت وخرجت وشعرها مكشوف دفعت الثمن هى ووالداها، مثل كاتيا، التى خنقوها فى مدرستها تحت أعين زميلاتها. ومدرسها لأنها رفضت الحجاب.

ولقد تكررت قصة كاتيا فى كل قرى المنطقة.

فى اليوم التالى لزواجى تحملت مهام وظيفتى الجديدة : طباخة جيا فى حى بوناب.

- ٩ -

مسـئوليتـى الجديدة كانت تسـتدعى تحضـير كل الوجـبات الإفطار، الغـداء والعشاء. وأحـيانا وجـبة رابعـة ليلا، عندمـا كان الأخوة يسـهرون.

في كل مرة كـان لابد أن أحضـر وليمـة. كان عددهـم يتراوح مـا بين عشـرة واثنى عشـر. لم يكونوا دائمـا نفس الأشخـاص. فكانوا يتغـيرون تبعا لنشـاطهم فى الإقليم. ولقد عرفت بعـضهم. أثناء تواجدهم فى المنزل، لم يكن مسمـوحا لى أن أجلس معهم أو أتحـدث إليهم، ولا أراهم إلا من خلف سـتار وعندمـا كان أحـدهم يحادثنى كان يعطينى ظهره.

فليس لأحـدهم الحق فى النظر لامرأة أحـدهم، حتى لو كـانت محجـبة أحيانا كنت أقف خلف الباب وأتصـنت على أحاديثهم فى الخفـاء. مرة رفـعت الستـار لأتطلع لهؤلاء الرجـال الذين يرتجف أمامهم الجميع. وجدت أمامى رجلا طويلا وقويا، وكان هناك نور يشع من وجهه، كـان جميلا جـدا، حتى أننى ارتبكت. حكيت ذلك لزوجى الذى عنفنى، فـمـا كـان لى أن أتطلع للاخـوة فى الخفـاء وأتسمع لأحاديثهم، فدورى محدد فى تحضير وجباتهم.

فى الصباح البيض المقلى بـالجبن المذاب فيه، نصف طهى حتى

لا يفقد فيتاميناته كما يقول أحمد. فى البداية لم أكن أعرف كيف حضره على ذوقهم، ولكن أحمد علمنى. بجانب ذلك اللبن الطبيعى الدافىء. كانت حماتى تجلبه لنا من بقرتها وكذلك بعض الجيران، إلى جانب البسكوت المصنوع بالزبد، والخبز الطازج الذى كانت إحدى الجارات تخبزه فجرا خصيصا لهم. كنت أقوم بتحضير شرائح الخبز المغطاة بالزبد والمربى بدلا منهم، حتى أوفر قوتهم لمحاربة الطاغوت، كما يقولون وليتحملوا البرد والجوع.

بالإضافة إلى هذه الأطعمة، كانوا يطلبون كل صباح بعض الأطباق التقليدية الغنية بمكوناتها الغذائية مثل : الفطير المحشو بمبشور البصل والثوم والطماطم والفلفل، طبق الجريش المحمص والبلح أو العسل المهروس فى الزبد.

وتحضير هذه الأطباق كان يحتاج لوقت طويل. كنت أجهزها مساء، وأستيقظ قبل الفجر لتحضيرها، حتى يكون كل شىء معدا قبل استيقاظ الأخوة. كان ذلك يحتاج ساعتين. لم أكن معتادة على الاستيقاظ مبكرا بهذا الشكل، لكن لم يكن لدى خيار.

بالنسبة للغداء والعشاء كان أحمد هو الذى يقترح القائمة.. كان أحيانا يعلمنى كيف أصنع بعض الأطباق التى لم أتعلمها عند أمى.

فقد كانت وجباتنا، مثل معظم الفلاحين بسيطة. كنت أحيانا أستشير إحدى الجارات، وتعلمت بسرعة. الصعوبة كانت فى الكميات، لم أكن أطهو أقل من ربع الخروف أو نصفه إلى جانب الخضار وخلافه. بالنسبة للدواجن، لم أكن أطهو أقل من ست أو سبع، يسبق ذلك تنظيفها. بالنسبة للبطاطس كان يجب أن أقدمها مع صلصة الطماطم بالثوم. كان الأخوة يحبون «الكرشة»

بالصلصة، وتنظيف أربع أو خمس «كرشات» عملية غاية في الإرهاق خاصة بدون ماء جار. لم تكن الكرشة تكفي وحدها، فأجهز بجانبها الشكشوكا (سلطة مصنوعة من الفلفل والطماطم المشوية يضاف إليها زيت الزيتون).

كان الاخوة كثيرى المطالب. فالطماطم بالخل يجب أن تكون مقشرة. وكذلك الفلفل المشوى الذى يستهلكونه باستمرار وانتظام. من جراء كل هذا تشققت يداى واحترقتا، فالمائدة يجب أن تكون عامرة.

كانوا يحبون أيضا الأسماك والسردين. يوم السمك، كنت أطلب العون من جاراتى لتنظيف الكمية الكبيرة التى تتعدى عشرة كيلو.

ثم أقوم بطهى السمك فى الفرن أو أقليه بالزيت بعد أن يتبل تتبيلة خاصة. الأكثر صعوبة كانت الأطباق التقليدية التى تحتاج لمهارة وخبرة ووقت.

فى رمضان كانت المأساة. فالاخوة لا يصومون بحجة أنهم فى حرب، والقرآن أعفى الجنود من الصيام، كانوا يأكلون الوجبة الرمضانية : الشوربة وفطائر البوريك المحشوة باللحم المفروم أو السبانخ أو الجبن.

عندما كنت أطبخ الفراخ مع الخرشوف ـ أحد أطباقهم المفضلة ـ كنت أظل ساعات أقشر الخرشوف. فى النهاية كانت يداى تسود وتجرح.

هذا النمط من العمل كان شاقا وجديدا بالنسبة لى. فعندما كنت فى منزل أسرتى، كانت أمى هى التى تقوم بالطهو.

كنت أشكو أحيانا لأحمد وخاصة عندما حملت. كنت أحاول أن

أذكره بوضعي الجديد. لكن كان يرد قائلا : «هذا هو الزواج، وعلى المرأة التى تقدر الجوانب الجميلة فى الزواج أن تقبل الجوانب السيئة».

فى الحقيقة، كان الذى يهمه رضاء الأخوة، ولقد وصل بى الأمر للتفكير فى أنه ربما تزوجنى فقط لأكون طاهية الجماعة. بعد الطعام، كانت تلال الصحون تضيف إلى إجهادى عبئا آخر.

كانت حماتي تعيش على بعد أمتار من منزلي ولكنها كانت ترفض مساعدتى كانت تأتى لتذوق ما أطهوه وتعطينى رأيها، فلقد كانت تعرف ذوق ابنها. كان هذا الوضع الجديد ملائما لها تماما، فلقد كانت ضمن أخريات، تستقبل الأخوة وتطعمهم، وبفضلى أصابت هدفين بحجر واحد. فمن ناحية تخلصت من هذا العبء، ومن ناحية أخرى ابتعدت عن الشبهات التى كانت على وشك أن تحوم حول أبنائها الثلاثة الآخرين.

بالنسبة للجماعة، وأيضا لعدد من الجيران، فإن زواجى من أحمد كان نعمة. فمنذ زواجى، أصبحت المسئولة الأولى عن إطعام الجماعة، قبل ذلك كان سكان حى بوناب يتناوبون على ذلك.

الموسرون كانوا يقومون بكل شىء والفقراء يقومون بالطهو والجماعة تشترى المستلزمات. كل عائلة كان عليها واجب الدعوة. ولا يوجد فى الكفر منزل لم يأكلوا فيه على الأقل مرة. فلقد كان شرفا للسكان أن يستضيفوهم على الغداء أو العشاء. كانت وسيلة لضمان رضاء الجماعة. أما الآن فلم يعودوا يأتون إلا عندى.

قبلى، كانت هناك امرأة أخرى فى الكفر تقوم بإطعامهم بصفة دورية أكثر من الأخريات. كانت مجاهدة تنظم الاجتماعات

السياسـية. للنساء فى المسـجد. كانت امرأة متـزوجة ولم تنجب. تركها زوجها، خرج يوما ولم يعد ولم تتلق منه أخبارا بعد ذلك.

لم يكن على وفـاق مع الجمـاعة الإسلامـية، لكن لم يكـن بيده شىء لذلك فـضل الاختـفاء. هى نفسـها تحكى لـلجميـع، أنه كان يستاء من رؤيتها محجـبة بصفة دائمة فى المنزل ولم تكن تتحدث إلا عن الدين.

كانت دائمـا خارج المنزل، بصـفة أساسـية فى المسـجـد، تقوم بالدعوة بين الناس حكت لى قـصـة تظهر جسـارة المجاهدات، فى يوم، كانت كـالعادة تقوم بنـشاطها فى المسـجد عندما حـاصرته الشرطة. كانوا يبـحثون عن أحد أعـضاء الجماعة الذى اخـتبأ فى المسـجد.. رأته وهو يدخل وأعطته جلبـابا وادناء «ثوب أسود كبير يغطى الجـسم من الرأس وحـتى القـدميـن» وجعلتـه يخـرج من المسجـد وسط النسـاء. لكنهـا لم تنتبـه إلى ارتدائه حذاءً رجـاليا. الشرطـة لاحظت ذلك وأوقفـته. قادوها إلـى القسم حيـث ضربت ضربا مبرحا، ما تزال تتذكره حتى الآن وتـحكيه بكل فخر.

مضت عدة أسـابيع على هذا الحال، خارت فيهـا قواى. لم يعد عندى وقت للصلاة. كنت أقضـى كل وقـتى أمام الموقد. فى المساء كنت أرتمى على الفراش لا أفكر إلا فى النوم.

فى يوم ذهبت لزيارة أهلى. كـانت المرة الأولى بعـد شهـر من الزواج قـصصت على أبى الحـيـاة التى أعيـشـها. لاحظ نحـولى وإجهادى. قلت له إننى لا أستطيع حـتى النوم ليلا، فزوجى يطلب منى أن أقوم بالمـراقبة ليـلا. وقبل الفجـر يجب أن استـيقظ لأبدأ الأعمال الشاقة.

أبى الذى كان يحمل لى دائما مشاعر قوية، كان حزينا لرؤيتى على هذا الحال. لكنه لم يكن يستطيع أن يعترف بتأثره. قال لى : «ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك؟ لا شىء. أنت ترين الجميع متعاونين وظرفاء معهم، ولا أستطيع أن اختلف عنهم.» شعرت فى هذه اللحظة بمدى سطوة أعضاء جيا فى الكفر. ففى اليوم الذى جاءت فيه الشرطة لتستجوب سكان حى بوناب، نفوا أى صلة لهم بأعضاء الجماعة. لكن أنا كنت أعرف، فقد أحضر زوجى مستندات ليحتفظ بها فى المنزل وقرأتها. كانت قائمة بأسماء من يتعاونون مع جيا وأسلوب تعاونهم. الجماعة كانت تقيد وتكتب كل شىء، حتى عندما تقرر قتل أحد.

-١٠-

كان العـم رباح هو الذى أدخل الجمـاعة الإسـلامية المسـلحة والتطرف في حي بوناب. كـان ذلك فى بداية عـام ١٩٩٤. الوقت الذى انتقل فـيه مع أخيه وعائلتـه لمنزل قريب منا دفعت الجـماعة ثمنه.

كنت فى ذلك الوقت عند أعمامى فى شيراجا.

العم رباح وأسرته كانوا يعيشـون من قبل فى العاصمة، وكان ذلك يبدو فى طريقة معيشتهم وسلوكهم، لكنهم كانوا فقراء. كانت لهم صـلات نسـب بعـيـدة مع بعض عـائلات حـى بوناب. قـبل وصـولهم، كـان الـكفـر مكانا لا يذكـر وبدون تاريـخ. لم تدخله الشرطة قبل مقتل الشاب ناصر.

تعرفت على عـائلة العم رباح يوم زواجى. زوجتـه وبناته جئن للمبـاركة دون أن يعرفننـى. كان هذا أسلوب الجمـاعة. لم أره إلا مرة واحدة، عندما جئت أزور والدى، بعد بضعة أشهر من ابعادى القهـرى إلى شيراجـا. كان رجلا ضـخما وقويـا. كل سكان الكفر كانوا يعـرفون أنه أمـير حى بوناب. وكان مـجمـوعة حى بوناب تجتمع فى منزله لدراسة تحركاتها.

رباح جاء ليعيش فى الكفر، لأن نـشاطه انكشف فى العاصمة،

وطلبت منه الجماعة أن يدير الكفر. كل أعمال حي بوناب كانت لابد أن تمر عليه. كان يقوم بالفصل فى الخلافات بين السكان والتدخل فى حل مشكلاتهم الأكثر خصوصية وسرية.

أول خصومة تدخلت الجماعة فى حسمها وأثبتت قوتها فيها قضية نصيرة. هذه الجارة الشابة كانت لها مغامرة عاطفية مع رجل متزوج يسكن قرية مجاورة وحملت منه. وعندما أصبحت فى شهرها الثامن، هجرها عشيقها لم يكن يريد الزواج منها وذهب ليختفى عند عائلته بالقرب من مدية.

والدا نصيرة بعد أن قدما شكوى للمحكمة، تبين أنها عديمة الجدوى، قررا أن يلجآ إلى العم رباح. هذا الأخير اتصل بالجماعة فى مدية التى نقبت عن الهارب وعثرت عليه. وأجبروه على أن يتزوج الفتاة ، هذه القصة تبين أن عشيق نصيرة كان يخاف من جيا أكثر من المحكمة والسلطة فالجماعة لم تكن تقبل عصيانا. فإما الطاعة أو الموت المؤكد.

العم رباح قتل فى يوليو ٩٥ على يد الشرطة على أثر مصادمات فى أحد البساتين بالقرب من بوفاريق.

فى حى بوناب، كما فى كل مكان آخر، ما أن تضع جيا قدميها فى مكان حتى تضع له نظاما جديدا. حظرت تعلم الفرنسية، والمدرسون الذين يستمرون فى تدريسها يهددون بالقتل.

كان أغلبهم من النساء اللواتى فضلن التقاعد. الفتيات اللاتى يبلغن التاسعة لا يحق لهن الذهاب للمدرسة أو الخروج دون حجاب. حتى أن زوجى أجبر أختى الصغرى (٧ سنوات) على أن ترتدى الحجاب.

وعندما جاءت لتنام عندنا يوما، أيقظها في الفجر لتصلي. عند ذهابها للمدرسة طلب منها أن تحصي له عدد رجال الشرطة والمتطوعين، وأن تقدم له تقريرا بكل ما شاهدته وسمعته منهم. كل الأطفال كان يوكل إليهم مهام التجسس لحساب الجماعة. كانوا يعرفون أشياء كثيرة ولكنهم لا يبوحون بشيء عندما كان رجال الشرطة يضغطون عليهم ليتكلموا.

فالمتطرفون كانوا يهددونهم بقتل آبائهم لو حكوا أي شيء.

الصبيان استمروا في الذهاب لمدارسهم، على الأقل قبل أن يحرق المتطرفون معظم المدارس في القرى المعزولة. الصبية الصغار كانوا يعملون لصالح الإرهاب بطيب خاطر. كانوا يعتبرونهم قدوة ونموذجا للقوة. كانوا يضعون القانون الذي يحترمه الجميع. كان لديهم المال والملابس الجميلة والسيارات الجديدة الجميلة التي كانوا يسرقونها من الأثرياء، ويستخدمونها عند القيام بهجماتهم أو يلغمونها. وبالنسبة للمال كانوا يحصلون عليه بالابتزاز.

ولقد رأيت قائمة الأشخاص الذين يدفعون لهم الفريضة، كل سكان القرى الزراعية المجاورة كانوا يدفعون. وصل ما دفعه بعضهم إلى مليون دينار. عند كل حصاد كان لهم نصيب. من لا يمتلك أموالا سائلة كان يقدم ما يستطيعه : أغطية، مراتب، أدوات مطبخ أي شيء.

كانوا متساهلين مع أبي. فلم يكن لديه ما يعطيه لهم. أعتقد أن كثيرا من الناس كانوا يتعاونون مع جيا بسبب الخوف لكن البعض كان يساندهم عن اقتناع وإيمان.

ولقد اتخـذ أحمد قرار الانضمـام للجماعة فى الـيوم الذى كان فيه بجامـع بن رمضان لصلاة الجمعة. فى هـذا اليوم ، حاصرت الشرطة المسجد وأخرجت الجميع منه.

قادوه، مع مجمـوعة كبيرة من المشتبـه بوجود صلة لهم بجيا إلى قسم الشـرطة وهناك أوسعـوهم لكما وضـربا، وبعد ذلك تم احـتـجـاز أحـمـد لمدة ثلاثة أيام فى زنـزانة فى قـسم الشـرطة. وأضافوا لذلك أوامـر مهينة كتنظيف المراحـيض وخلافه. فى هذا اليوم قـرر أحمـد أن ينضم للجمـاعة للانتـقام من الشـرطة لكنى اعتقد أنه بدأ التفكير فى ذلك منذ أن انتظم فى الصلاة وأخذ يتردد على جلسات الجماعة قبل ذلك الحادث.

كـمـا أننى منذ عـرفـتـه وهو يكره الشـرطة وكل مـا يذكـره بالسلطة.

يوم مقتل الرئيس محمد بوضياف، كنا نبكى، لكن هو لم يخف سعادته، رغم أنه - من قبل - لم يكن يهتم بالسـياسة. كان يتحين الفرصة ليغير وضعه. وما دام العم رباح، عرض عليه دون شباب الكفر أن يدخل فى التنـظيم فلأنه شعر أن لـديه ميولا واستـعدادا لذلك.

منذ حضـور أحمد للكفـر، والجماعة مـهتمـة به، نظرا لسلوكه وطريقته، فـهو لم يكن يتراجع أمام أى شىء، كمـا أنه كان يعرف الكفر جيدا والأقليم كله.

فضـلا عن ذلك كانت جذوره من كـيف الأخضـر، وهى منطقة نفـوذ جيـا فى مدية. هذا الإقليم مـهم جدا للجـماعـة. مجـموعـة العاصمة وميتيجا كانت لهم صلة قوية مع المجموعة هناك. وعندما

علمـوا أن أحمـد قضى طفـولته هـناك، ومازال لديه هناك عـائلة، عـرض عليـه العـم رباح أن يكون حلقـة الوصل بـين حى بوناب وكـيف الأخضـر. لم تكن الشـرطة تعـرفـه فى ذلك الوقت، فكان يمكنه التحرك والتنقل بحرية.

وهكذا وجد نفـسه مقحـما وهو الذى لم يكن يوما مـجاهدا أو مهتما بالشئون الدينية من قبل بل على العكس.

كل ذلك حدث فى فـترة ابتعـادنا. أنا متـأكدة أن العم رباح هو الذى أدار رأسـه، وأحمـد لم يكن يريد مـعرفـته. خـمنت ذلك من الطريقـة التى كان يتحـدث بها عنه. لكـن عندما مات كـان يكن له تقديرا وتبجيلا يصل لحد التقديس.

قبل انضمـامه للجماعة، أقنعـه العم رباح بالتردد بانتظام على الجامع، وهو الذى لم يكن يضـع فـيه قدمه. كانت طريقة لاخـتبار طاعته. عندما أصبح الأمر لصـالحه ضم لجيا ضمن المقاتلين. فى البداية كان دوره نقل التعليمات. وبعد أن حصل على ثقتهم كاملة، سمحوا له بمتابعـة تحركاتهم ومشاهدة أين يجتمعـون ويختبئون ويستعدون لعملياتهم وينفذونها.

مرحلة المشـاهدة والملاحظة كانت مهـمة لكل عضـو جديد. فى البداية كان أحمد يحضر لهم الطعام الذى كان يجهزه الجيران لهم وهم فى مخابئهم.

كان يقوم بالتسوق لهم، وكان ذلك يستدعى السفر إلى الجزائر العـاصـمـة والتـجـول فى المحـلات الكبـرى أو بعض البـوتيكات المتخـصصة، مع البائعـين المستتـرين لشراء ملابس أو متـعلقات خاصة بجيا.

اشترت له الجماعة هاتفا نقالا «موبايل» لتسهيل عملية تنقله.
عندما كانوا لا يرتدون الزى التقليدى، كانوا يرتدون الماركات العالمية المرتفعة الثمن. «البلوفر» بألفى دينار، سترة جلدية بعشرين ألف دينار، أحذية رياضية «ريبوك، نايك وفيلا» بعشرة آلاف دينار.
كان أحمد يقول إن الأحذية الرياضية الجيدة ضرورية لهم ليجروا بسهولة عند اللزوم. كما كان يشترى لهم عطورا خاصة من السعودية مصنوعة من العنبر، والسواك والحنة والكحل ومصاحف وكتبا للدعوة.
كانوا يشترون بنطلونات من الجينز الغالى ويقصونها عند الركبة لتتواءم مع الزى الإسلامى وحتى لا تقيد حركتهم أثناء الجرى.
بصفة عامة، كانوا يرتدون بنطلونات واسعة كتلك التى يلبسها الأفغان. كان بعضهم يفضل الجينز ويرتدون فوقه جلبابا أخضر أو بنى فاتح. عندما كانوا يجرون كانوا يرفعون الجلباب ويضعون طرفه فى الحزام. بعضهم كان يرتدى جلاليب من قماش الشاش الأخضر أو الأسود. كانوا يصنعون هذا الزى عند بعض الخياطات، كانوا يدفعون لهن بسخاء فيقبلن بدون تردد.
الأكثر أناقة منهم كانوا يرتدون بنطلونا تقليديا منتفخا ومشغولا من عند الركبة بخيوط حريرية. بالنسبة للنساء، طبقا لقواعد الجماعة، كان المفروض أن يرتدين أثوابا طويلة قاتمة اللون، تغطى أعناقهن وصدورهن وأذرعتهن، واسعة لا تجسد ويجب تفادى كل ما هو شفاف أو ضيق. أتذكر يوما، كنت أرتدى

قميصا أبيض شفافا. أرغمني أحمد أن ألبس واحدا ثانيا فوقه رغم حرارة الجو وكنا وحدنا في المنزل. في اليوم الثاني اشترى لي ثوبا اختاره بنفسه، لم يعجبني وكان من هذه النوعية. وبهذا كنت مرغمة أن أتلفح به كل يوم.

وكان قد منعني من قبل أن أرفع الحجاب في المنزل عندما أكون وحدي معه . لم يقتصر الدور الذي يؤديه أحمد على المشتريات، فبسرعة أصبح عنصرا هاما في الجماعة.

لكنه لم يشارك في القتال إلا بعد زواجنا. وبعد وفاه العم رباح، ظلت جماعة حي بوناب عدة شهور بدون أمير. كانت تدار بواسطة القائد العام. ثم احتل أحمد هذا المنصب الشاغر، في نوفمبر ١٩٩٥، قبل عدة أسابيع من انتخابات الرئاسة.

اليوم الذي أوقفتني فيه الشرطة، اندهشوا من أنني زوجة الأمير ولا أرتدي حليا ذهبية كالأخريات.

وأعترف أنني شعرت بالزهو من فكرة كوني زوجة الزعيم.

- ١١ -

قبل الصعـود إلى الجبال والغابات، كان لابد لأعضــاء جيا من فترة تحضير. خلال شهور طويلة، كان الرؤساء المحليون يراقبون سلوك الشخص الذى ســيصبح واحـدا منهم. يختبرون إخـلاصه وطاعته وولاءه للجماعة.

لأن هناك من يوافق تطوعـيا على العـمل من أجل الجمـاعة مع البقـاء مع عائلاتهم. لكن حتى هـؤلاء ينتهى الأمر بهم بالالتـحاق بالجماعة فى الجبـال، لأنهم بحاجة للرجال هناك. ولأن المجاهدين بعد اكتـشاف أمرهم من قبل قوات الأمن يـصبح بقاؤهم فى المدن خطرا عليهم.

جيـا لا تعطى ثقتـها كاملة لمجـاهد لم يحمل بعـد السلاح، لأنه بذلك يكون قد انغمس معهم بشكـل يصعب عليه التراجع. حتى لو قرر الانسـحاب بعد ذلك فلن يهرب من السجن.

وليدفعوا أحمد للجـبال ـ بعد أن لاحظوا تردده فى ترك عائلته ومنزله ـ تصرف الإخوة طبقـا للسيناريو المعتاد. فى يوم، أرسلوا واحدا منهم غيـر معروف فى الكفر، قابل أحـد إخوة زوجى وقال له: «هناك شائـعة منتشـرة أن أخاك إرهابى». ولقـد أقلق ذلك أخا زوجى وذهب وأعاد على مسامع أحمد ما قاله هذا الغريب.

في المساء قص أحمد عليّ ما حدث. فهمت أنها خدعة ماكرة من جانب الجماعة ليدفعوه للأمام أكثر.

كان ذلك سهلا، فلقد بدأ يقلق من العساكر وعندما نبهته إلى الخدعة قال لي : «الاخوة لا يمكن أن يفعلوا معي شيئا كهذا». وذهب وقص عليهم ما كان، وبدلا من أن يطمئنوه أثاروا مخاوفه وقالوا له إن الوقت قد حان ليلحق بهم في الجبال.

لم يبق أمام أحمد إلا الامتثال للنصيحة. ألهبت الفكرة خيال أحمد، فمنذ وقت طويل وهو يحلم بأن يحمل سلاحا دائما معه، لكنه كان قلقا. كان يشعر أنه لو هجر القرية، من الصعب أن يدرك ما سيواجهه. اصطحبه أصدقاؤه لمدة أسبوع لم يصلني عنه خبر. عاد قبل يومين من الانتخابات الرئاسية.

مر ثلاثة شهور على زواجنا، كنت حاملا ولا أعرف. كنت أشعر بالغثيان دون أن أفهم السبب. وعند عودته، أصبح أحمد رجلا آخر، نحل، وكحل عينيه، ووضع زيت الزيتون في شعره وتطيب بالعنبر. ارتدى جلبابا أخضر وشاشا أسود، كانت أول مرة يرتدي زيهم كان معه المحشوشة (نوع من البنادق بفوهة مسننة يطلق عليها أعضاء جيا في الجزائر هذا الاسم).

عندما دخل من النافذة، بعد أن قفز من على السور، كما يفعل دائما. لاحظت خيالا مجهولا تماما بالنسبة لي، أرعبني وعندما مرت لحظة المفاجأة العصيبة أخذت في النحيب. ففي هذه اللحظة، أدركت أنني سأفقده يوما ما.

قال لي أنه خلال الأسبوع الذي قضاه في الجبال، لم يكن يأكل أو يشرب كان اختبارا لقياس درجة مقاومته لخشونة الحياة في الأدغال.

كان على جسمه آثار لكمات وبه بقع زرقاء. كانوا يضربونه بصفة دائمة كل يوم، للحكم على صلابته وتحمله للمعاناة الجسدية.

وعندما أبديت دهشتى لهذا الكم من الوحشية، شرح لى وباقتناع تام أن ذلك ضرورى لاختبار مقاومته للتعذيب. تعلم أيضا استخدام الأسلحة، كان مفتونا.

عندما كان يروى ما عاشه، كان صوته يحمل نوعا من السعادة حتى وهو يتذكر الضرب والتعذيب. كان منبهرا وخاصة وهو يتحدث عن الأسلحة. منذ وقت طويل كان يتمنى أن يتعلم استعمالها. لكن الأخوة لم يكونوا يريدون ذلك، كان يقولون له : «فيما بعد، عندما تصعد للجبل».

خلال الفترة القصيرة التى قضيتها معه ـ ٣ شهور ـ عرفت الكثير عن أنشطة جيا. حتى عندما كان يرفض أن يحدثنى عنها، كان يكفينى أن أراقبه. كان يرجع للمنزل، ويداه بهما جروح. كان يعلل ذلك بأن العمل الذى يقوم به شاق.

كان يحفر الخنادق ويصنع القنابل وينقل الأسلحة التى كانوا يسرقونها من قوات الأمن. كانوا يعلمونهم ذلك فى الجبال. كان هناك متخصصون فى أكثر من مجال يحضرون من أقاليم أخرى لاعطائهم دروسا.

وهكذا تعلم أحمد صناعة القنابل وتفخيخ السيارات. فلقد خصصوه فى هذا المجال لأنه كان يعرف الكثير عن الكهرباء.

كان قد تعلم ذلك فى سن صغيرة من خاله الكهربائى. كان يصلح أجهزة التليفزيون والراديو، ولقد صنع مرة محول راديو.

الجماعة تختار الأشخاص تبعا لمعارفهم ومهاراتهم، وما أن تختارهم سواء رضوا أم لا، لا يكون أمامهم إلا الانصياع أو القتل لهم أو لأحد أفراد عائلاتهم.

فمثلا، جارنا سعيد، أجبروه على الصعود للجبال. لم يكن يعرف يقرأ أو يكتب. كان يمتلك صوتا جميلا، وكانوا يحتاجون لمثل هذه الأصوات لتلاوة القرآن. ولقد أجبروه على أن يعيش معهم في الجبال.

كانوا يصحبون الأطفال ليعلمهم تلاوة القرآن. واعتقد أنه مات هناك.

عندما كنت ألوم أحمد لأنه ليس له عمل دائم، كان يسخر منى ويقول : «ماذا؟ أنا أحارب الطاغوت وهو عمل أهم وأكثر جهادا بالتأكيد من أى عمل آخر». كنت ألاحظ أن معه مالا أكثر مما كان يمكن أن يحصل عليه لو كان يعمل بشكل عادى .

من الأيام الأولى بعد زواجنا، لم يكن أحمد ينام فى المنزل. كان يقضى بعض الأمسيات معى ثم يختفى فى منتصف الليل. فى الفجر يعود مع الاخوة لتناول الفطور، لم أكن أعرف أين كان. كان يرفض أن يخبرنى كان يكتفى بقوله : «عندى عمل هام لابد من إنجازه» متأخرا عرفت ما كان يقصده بهذا العمل.

خلال شهر، بدأت الجماعة تأخذ راحتها عندى. حتى أنهم بدأوا ينامون عندى، فى البداية مجموعات صغيرة مكونة من شخصين أو ثلاثة، فيما بعد ارتفع العدد حتى وصل إلى عشرة أو أحد عشر. أمام هذا الغزو لم يعد أمامى إلا أن اترك لهم حجرة نومى وأضع سريرا فى المطبخ لزوجى ولى.

الأسوأ هو عندمـا كانوا يقضـون الليل، وهو ما أصبح يومـيا، لم يكن لى الحق فى النوم، كان علىّ أن أقوم بالمراقبة.

أحمد أعطى للأخوة كل الأغطية ومنعنى من أن أتدثر إلا بملاية خفيـفة. كان برد الليل يمنعنى من النوم العمـيق. عندما ظل الحال هكذا قرر أحمد إنشاء حجرة إضافية فى الفناء لكى يسكنوا فيها.. فلقد كان الفناء فسيحا. قامـوا بانتزاع جذور شجرة ضخمة كانت مزروعة فى منـتصفه كان الجـذر ضخما، فحـفروا حفرة كـبيرة لانتزاعه وهو ما أعطاهم فكرة أن يستخدموا هذه الحفرة كمخبأ.

ولتنفيـذ الفكرة أبعدونى بأن طلبوا مـنى الذهاب لمنزل أسرتى واستمروا فى الحفر طوال اليوم.

عندما انتـهوا من عمل المخبـأ وضعوا عليه بلاطة وأقـاموا من حوله حوائط الحجرة.

- ١٢ -

دورى كان يقتــصر على القيام بالمطلوب منى. كـان أحمد يردد على مسامـعى دائما : «يجب أن نستقبـل الأخوة عندنا، وإلا فإنهم سينامـون فى العراء والله سيـعاقبنا على ذلك». وكنت أخـاف جدا من العقاب الإلهى. بالنسبة لهم، كانوا يخافون من مباغتة الشرطة لهم حـتى أنهم كانوا ينامـون بملابســهم وبأحذيتــهم الرياضيــة، تحسبا لاستيقاظهم فى منتصف الليل واضطرارهم للفرار.

كنت أحيـانا، أجبر أحمـد على خلع حذائه، كانت رائحة كـريهة تملأ الحجرة وتصيبنى بالغثيـان. كنت أعانى لأدفعه لغسل قدميه، أما الإستحمام فإلحاحى كان بغير فائدة.

مهمة غسل قدميه كانت من نصيبى ـ لأنه على حد قوله ـ لديه نصيبه من الأعمال الشاقة.

وطبقـا لكلام أحمـد، فإن الرجل عندمـا يجاهد، فـإن الله يكتب نصف حـسناته فى صــحيـفـة زوجـته. لذلك عندمـا كـان يدخل ويجدنى مسـتلقية على الفراش ـ وهو ما كـان يحدث نادرا ـ كان يأمرنى بالقيام على الفور. كان يقول لى فى كل مرة : «ليس هناك سبب لأن أرهق أنا نفـسى وتقتسمى أنت مـعى الحسنات دون أن تفعلى شيئا».

غسل قدمـيه، كان من الأفعال التى أتقـرب بها إلى الله، وكذلك غسيل ملابسه.

كان زوجـى ، يحضـر لى بصفـة منتظمة عـددا من الحقـائب المملوءة بالملابس القذرة. لم يكـن عندى ماء فى المنزل، فكنت أذهب لاحضاره من النبع فى عبوات بلاستيك، كنت أضعها على عربة يد بدلا من الذهاب عدة مرات.

عندمـا كنـت أغطس هذه الملابس فـى الماء السـاخن، كـانت البراغيث تقفز بالعـشرات وتعوم على سطح الماء. كنت أتحمل ذلك بصعوبة فى فترة الحمل، وكثيرا ما كنت أتقيأ أثناء الغسيل، لكنى كنت أتجلد لأقصى حد.

كنت أعـتـقـد أننى بذلك أؤدى واجـبى نحـو إقـامة الخـلافـة الإسلامية على الأرض.

فأحمـد كان يقول لى أنه كلمـا عانينا وجاهدنا كان الله راضـيا عنا. كان يلزمنى أحيانا يوم كامل لتنظيف هذه الملابس.

يوم الغسـيل، كان الاخوة لا يعـتمدون علىَّ فى إعـداد الطعام، كانوا يكتفون بالبطاطس المحمرة والبيض بالسمن.

كنت أقضـى يومى فى الـعمل الشاق، وفى المسـاء أكون منهكة، وكنت أستغرق فى النوم رغم مـحاولات أحمد لمنعى من النوم، لم يعد لدى وقت فراغ أتسلى فيه. كـما أن زوجى منذ انضم إلى جيا ابتـعـد تماما عـن المزاح والفكاهة، وهو الذى كـان يحب الضـحك واللهـو عندما عـرفتـه. المرات القليلة التى رأيتـه فيهـا يبتـسم أو يضـحك بعد زواجنا كـانت فى مناسبـات نادرة بصـحبـة الأخوة وليس معى.

لقد منعنى حتى من سماع محطة القرآن التى لا تذيغ سوى أغنيات دينية. ولو دخل وسمع تلك الأغنيات كان يغلق الراديو فورا ويغضب منى.

ولقد لامنى على ذلك أكثر من مرة، وانتهى به الأمر إلى تحطيم الراديو بسبب ذلك. كان يعشق الحزن، فالبهجة الحقيقية لن تتحقق إلا عندما تقام الدولة الإسلامية.

كان له طقوس لكل فعل حتى العادى منها. فلكى يشرب كوبا من الماء، كان يمسك الكوب بيده اليمنى ثم يرتشف ثلاث رشفات صغيرة قبل أن يشرب حتى يروى ظمأه ومن المفروض أن لا يأكل كثيرا، فقط حتى لا يشعر بالجوع وتظل المعدة بها فراغ. كان ذلك ينطبق فقط على الآخرين، أما بالنسبة له وللأخوة فكانوا يأكلون بشراهة وحجتهم أنهم يجب أن يكونوا أقوياء ليقدروا على محاربة الطاغوت.

قبل أن يدخل الحمام عليه أن يتلو دعاء خاصا. فى الفراش، نطفىء النور ولا يجب أن نرفع الغطاء بالكامل. مرة واحدة رأيت فيها زوجى عاريا عندما دخلت الحجرة عليه فجأة، ولقد صاح قائلا : «لقد ارتكبت معصية، يجب أن نستتر أمام الله».

فى الفراش، وقبل أن يلمسنى كان يتلو دعاء : «بسم الله، اللهم أبعد الشيطان عنا وعن ذريتنا». حتى بعد أن حملت كان يتلو هذا الدعاء كلما اجتمعنا فى الفراش، وكان يقول بدون هذه الشعائر فإن الإنسان يصبح كالحيوان.

بالنسبة للسياسة لم يكن يعجبه أحد. كان يقول أن الدولة الإسلامية لن تحتاج إلى الأحزاب السياسية، مع وجود القرآن

والسنة ليس علينا إلا تطبيقهما.

كان يكره محفوظ نحناح رئيس الحركة الاجتماعية للسلام (حزب إسلامى عضو فى الائتلاف الحكومى) وكان يعتبره واحدا من ممثلى الطاغوت لأنه أعطى حرية كبيرة للنساء. أما عباس مدنى (رئيس الجبهة الإسلامية للإنقاذ المحظورة منذ مارس ١٩٩٢) فكان يعتبره خائنا وأحد رجال الطاغوت ولا يهمه إلا مقعد السلطة.

بالنسبة لأحمد فإن إقامة الدولة الإسلامية لن يتحقق إلا بالقتال الدموى والتصفية الجسدية لجميع الخصوم والأعداء.

فى المقابل كان يحب عبدالله جاب الله رئيس حزب إسلامى معارض وممثل فى البرلمان.

لكن المسئول السياسى الذى كان يكرهه أكثر فهو رئيس الجمهورية اليمين زروال. واليوم الذى أشيع فيه أنه تم اطلاق الرصاص عليه لكنه نجا، لم يتوقف عن ترديد هذه العبارة : «هذا الكلب، إنه قوى اليوم، لكن سيأتى يومه كالآخرين».

فى حى بوناب، ذهب السكان لينتخبوا يوم ١٦ نوفمبر ٩٥ رئيس الجمهورية عداى. أحمد رفض وقال لى : «إنهم جميعا من رجال الطاغوت» عشية يوم الانتخابات، أشترى لوز وشيكولاته له وللأخوة، أمـا أنا فمنعنى وقال : «لو استمريت فى القضم طوال النهار ستعتادين على ذلك وتنسين الله».

كان لى معه حوار طويل فى تلك الليلة لأنه كان يحرم علىّ الكثير مما يحلله لنفسه. كما أننى كنت أريد أن انتخب، فلقد استخرجت لى أمى بطاقة انتخابية.

صباح يوم الانتخابات، جمعت أشيائى وقلت له أننى سأهجره. عندما رآنى على وشك الخروج وإننى مصممة وجادة بكى، ثم قال : «لو كنت تريدين ختما على بطاقة الانتخابات سأختمها لك فعندى ما يلزم».

كانت هناك شائعة قد انتشرت، فحواها أن البطاقة الانتخابية ستصبح ضرورية للحصول على الأوراق الرسمية. ومن لن تكون عنده وعليها ختم مكتب الاقتراع، سيعد شريكا لجيا.

وكنت أفكر فى مستقبل تسجيل طفلى القادم فى السجلات المدنية. لكن أحمد لم يكن يشغله ذلك، بل قال لى : «فى كل الأحوال سنقيم قريبا الدولة الإسلامية، ولن تكونى بحاجة لهذه الأوراق».

الأيام السابقة للانتخابات قضاها فى محاولة لإثناء سكان حى بوناب عن الذهاب للانتخاب. هو وجماعته كتبوا على الحوائط : «اليوم، الانتخاب، غدا الرصاص، وبعده سيكون الدم على الحوائط». ولقد خاف الناس من رد فعل جيا، لكنهم ذهبوا للتصويت.

فى البداية، كانوا مترددين، ولقد خرجوا جماعات يحرس بعضهم بعضا. لكن ما إن توجه البعض نحو مكاتب الاقتراع حتى تبعهم الآخرون.

الأكثر طرافة، أنه بعد الظهر، كان الأهالى فخورين بما فعلوه. لم تحدث مشاكل من الجانبين. وأظن أن أعضاء الجماعة لم يعاقبوا سكان الكفر لأنهم كانوا بحاجة إليهم. كانوا فى هذه الفترة مازالوا يضعون حدا لتطرفهم.

- ١٣ -

عندما أصبح أحمد أميرا للجماعة، كان ذلك بعد إعداد فى الجبال. وشرح لى أن تنظيما يدعى الجماعة الإسلامية المسلحة «جيا» وأن رئيسه هو عنتر زوابرى (فى هذه الفترة كان أميرا اقليميا ولم يصبح أميرا قوميا إلا فى يوليو ٩٦)، كان يتحدث عنه وكأنه كائن فوق مستوى البشر. قال لى : «قوات الأمن يمكن أن تبحث عنه فى كل مكان ولكن لن تجده ابدا، إنهم يتخيلون أنه يعيش فى قصر، فى حين أنه واحد من الشعب يعيش مثل الجميع. يأكل معنا، وينام معنا ويفعل ما نفعله.».

قال لى أيضا أن أعضاء جيا يعرفونه لأنه يزور كل الجماعات المحلية، لكن بصفة عامة، فإن الأمراء المحليين لمنطقة ميتيجا على الأخص، هم الذين يذهبون إليه ليحيطوه علما بنشاطهم وبالأخص أمراء دوار لاهجر وأولاد علال وهى مناطق النفوذ الأكثر أهمية.

فى هذه الفترة عندما كان يكلمنى عن أولاد علال، لم أكن أعيرها انتباها فلم أكن أعرف ما يحدث على وجه الدقة. لم أعرف إلا عندما تحررت وبدأت أطلع على الجرائد. فلقد قام الجيش عام ٩٧ بعملية تمشيط واسعة بها للقبض على أعضاء جيا المتغلغلين بها.

عنتر زوابرى كان الأمير المحلى ومساعده «القائد» وهو الذى

يقضى فى مشاكل الأمراء التابعين له، وهو الذى كان يوزع غنائم الحرب بين أعضاء الجماعة والأمراء. بالنسبة لنا لم يعطونا شيئا. الغنائم، كان زوجى يجمعها بنفسه بعد الهجمات التى تحدث فى منطقة نشاطه، ومنذ اختفاء زوجى لم أحصل على مليم.

عندما كان أحمد يتحدث لى عن أنشطته وأعماله كان هدفه أن يدير رأسى. ولقد نجح فى ذلك. شيئا فشيئا أصبحت أفعل كل ما يقوله لى بدون تحريف. أحيانا بسبب الخوف من الفظائع التى كان يرتكبها مع الناس، وأحيانا أخرى لأنه استطاع أن يقنعنى بعدالة قضيته.

كان يعاقبنى أحيانا بدون مناقشة. فى يوم ارتكبت خطأ : سمحت لنفسى بمشاهدة ما يفعله الأخوة فى فناء المنزل. فاجانى زوجى وأنا اتجسس عليهم. قرر أن يعاقبنى بالفلقة (ضربات بعصا غليظة أو سوط على بطن القدمين، عقاب يستخدم كثيرا من أعضاء جيا فى الجزائر للتأديب). لكن أحمد ضربنى على ظهرى بسوط من الجلد، كان المفروض أن يجلدنى أربعين جلدة، لكن عندما رآنى أعانى فى صمت بدون أن أنطق راف بحالى واكتفى بعشر .

مرة أخرى جلدنى لأننى كنت أسمع البرنامج الموسيقى فى الراديو، طبقا لتعاليم جيا، لا يجب الاستماع إلا إلى تسجيلات القرآن وممنوع منعا باتا الاستماع إلى الأغانى، وكان أحمد يقول لى : «يجب أن تكونى دائما خائفة من عذاب يوم القيامة». فى هذا اليوم كنت وحدى فى المنزل، أعانى من الملل، فتحت الراديو واستمعت لأغنية حضر أحمد على غفلة، ما إن لمحته يدخل حتى أغلقت الراديو، لكنه شعر بارتباكى. سألنى. عما يحدث فقلت له

الحقيقة. وتحول فى ثانية إلى وحش. جلدنى ثلاثين جلدة لأننى تجاسرت وخرقت القواعد. كان أحمد يقول لى أنه لا يحارب الطاغوت فقط لكن يحارب الشياطين والجن. فهناك الكثير من الجن فى بلدنا، فيجب اخراجهم من مجتمعنا لنطهره. كنت أعتقد أنه على حق. فهناك ثلاث نساء من عائلتنا تلبستهن الشياطين ولم ترغب فى تركهن بل تزوجوهن.

كان أحمد يقول لى : «أرأيت، يجب أن نحارب على أكثر من جبهة، الأولى ضد هذه الدولة الملحدة، ثم الخونة وأخيرا الجن».

ولقد حدث ذلك لابنة خالة رشيد صديق أحمد الحميم. خطبها، فلقد شبا معا، لم يكن يحبها لكن هى كانت مغرمة به. عندما مات رشيد، سكن جنى جسد خطيبته وتزوجها. أرسلت خالتها فى طلب أحمد وأصدقائه. ادخلوها حجرة وأغلقوا على أنفسهم الباب. أخذوا يتلون آيات من القرآن. وما إن بدأت تسمع القرآن حتى ارتعدت وبدأت تخلع ملابسها، لكن بعد جلستين أو ثلاث شفيت تماما وعادت لاتزانها. كان أحمد يفعل الشىء نفسه معى، عندما أكون فى حالة غضب كان يتلو آيات من القرآن على كوب ماء ويجعلنى أشربه كنت أشعر بالهدوء بعد ذلك.

ولقد حفظ أحمد القرآن وهو صغير، وبعد أن كان قد نسيه، استرجعه بعد اتصاله بالإسلاميين. كان يقول دائما أن المرأة لديها استعداد للسحر ولتلبس الجان، لذلك يجب مراقبة النساء ورعايتهن عن قرب لوضعهن على الصراط المستقيم.

كان ينقب عن النساء الزانيات ويقوم برجمهن، ولقد قتل هو وأصدقاؤه عددا كبيرا بهذه الطريقة، أو يعذبونهن ويبترون أعضائهن بالسكاكين. لكنهم لم يفعلوا ذلك فى كفرنا، لم يكن فيه نساء سيئات السمعة.

كان هناك فقط خمس فتيات لا يستحسن أعضاء الجماعة سلوكهن وقاموا بقتلهن وفصل رؤوسهن عن أجسادهن.

كان المتطرفون يسيرون وفق تعاليم كتاب صغير يسمى «حصن المسلم» الذى يشرح سلوك المسلم الصحيح فى الحياة.

كانت فكرة القتل موجودة فى عقولهم دائما. فى يوم كنت مستلقية على الأرض، مر بجانبى فأر كبير، أفزعنى وصرخت بأعلى صوتى كان أحمد موجودا ولقد اندهش من خوفى من فأر وقال لى سأريك كيف تقضين عليه. ضربه بحذاء بلاستيك، وأمرنى أن أنهى عليه. كانت فكرة رهيبة، لكنه أصر وهددنى بأن يضربنى إن لم أفعل. وليقنعنى قال لى : «هكذا تتعلمين القتل، بعد الفأر يمكن أن تقتلى إنسانا.».

كان يريد بكل وسيلة أن يعلمنى كيف أقتل وكان يحدثنى عن ذلك كثيرا ، فى يوم قبل أن يصعد للجبل، اختلس بندقية أحد الاخوة وأحضرها للمنزل ليعلمنى كيف أحشوها بالرصاص وأفرغها منه.

أثناء الدرس، وبسوء تصرف منه خرجت رصاصة لتستقر فى الحائط عندما عرف أصدقاؤه ما حدث عاقبوه لسرقته السلاح وسوء تصرفه وهو الذى جُلِدَ هذه المرة.

ربطوه فى شجرة وجلدوه بسوط على ظهره وبطن قدميه.

عاد أحمد مرة إلى المنزل وبصحبته امرأة تدعى هدى قدمها لى وقال لى أنها ستمكث معنا. كانت حاملا فى شهرها الخامس ومريضة بالانفلونزا ولقد جاءت من قسنطينة.

فى هذه الفترة لم أكن قد تعلمت لغة جيا (يتحدثون الفصحى التى بها الكثير من المصطلحات الدينية)، عندما قدمها لى استخدم

كلمات لا أعرفها. ظـننتها زوجته الثانية. كانت جمـيلة جدا، تركها معى وانصرف فى غيابه لم تكلمنى ولا كلمـة واحدة، فهذه قاعدة لدى أعضـاء الجماعـة وعائلاتهم ألا يتـحدثوا أمام الغـرباء. كانت تنتظر من زوجها أن يقول لها كـيف تتصرف معى وعندئذ يمكنها أن تثق بى.

عاد أحمد مساء مع أصدقـائه وهو محمل بالمؤن للعشاء، عشاء خاص احتفالا بهـدى. كانت الشكوك تساورنى لكننى لم أجرؤ أن أقول شيئا. عندما طلب منى أن أحضر لها الغرفة فعلت والغم يملأ قلبى.

عندمـا كنت أرتب الفـراش دخل الحـجـرة، هنا لم أسـتطع أن أتمالك نفسى وسـألته عن حـقيقة علاقته بهـا، فضحك طويلا، كان سـعيـدا بغـيرتى ثـم طمأننى قـائلا : «أنهـا زوجة أخـينا كـريم، وسيراها عندنا اليوم بعد فراق سبعة شهور».

كريم وأخواه كانوا من أعضاء جيا المطلوبين من الشرطة. هدى وزوجها ظلا عندنا أسبوعا، ثم رحل هو إلى الجبال وهى لا أعرف إلى أين. تنتقل من منزل لآخـر، ومن مدينة لأخرى لتقـابل زوجها الذى لا يمكن أن يظل فى نفس المكان لمدة أسبوع.

هدى التى ظلت أول يوم ملـتزمـة الصـمت التام، فـكت عقـدة لسـانها عندمـا قال لهـا زوجهـا أنها يمكن أن تثق فـىَّ. كان أول حـديثهـا لومـا، لأننى من وجهـة نظرها لست مكافـحـة، فيـجب مساعدة الأخوة فى جهادهم لتأسيس الخلافة الإسلامية، وللنساء دور كـبـير للوصـول لهـذا الهـدف السـامى. وهى تقـوم بتنظيم مقابلات مع الأخوات الأخريات.

اعتـرفت لها بأنها أول أخت أسـتقبـلها. ولأننى مشـغولة طول

النهـار فى المطبخ، فليس عندى وقت أضـيعـه فى هذه المناقشـات العقيمة. فى البداية كـانت تلقننى نصائحها، كانت تريد أن تعطينى انطباع المرأة القوية الواثقة من نفسها المحددة الهدف.

لكن مـا إن قـوت الصلـة بيننا، حـتى تخلصت مـن هذا القناع وتبين لى أنها ليست راضية عن وضـعها كما حاولت أن تظهر فى البداية.

صارحـتنى بأنهـا تغبطنى لأننى تزوجت زواجـا مدنيـا ولدى منزل يضـمنى مع زوجى، أما هى فـزواجها عـرفى اقتـصر على احتفال دينى أمام الاخوة وغير معترف به قانونا.

كانت تعـانى من التنقل من مدينة لأخـرى لترى زوجـها الذى لا تقابله إلا مـرة كل أربعة أو خمســة شهور. كانت تعـيسة وهى تفكر فى الجنين الذى تحمله فى أحـشائها والذى سيـسجل كطفل ولد لأب غير معروف وأم غير متزوجة.

أخت هدى أيضـا كـانت مـتزوجـة من عـضـو فى الجمـاعـة، فالاخـتان تزوجـتا أخـوين. قابلت هدى بعـد ذلك بأربعة شــهور، كانت حاملا فى شهرها الأخير وكان زوجها قد قتل.

أطفال زوجات المتطرفين يعانون طـوال حياتهم، فهم يسجلون وكأنهم بلا أب. لـكن فى الوقت الذى تزوجت فيه هـذه النساء من متطرفين، كن يعتقدن أن أزواجهن سيأخذون مقعد السلطة.

فى هذا الوقت كان المتطـرفون يطلبون النسـاء للزواج، أما الآن فإنهم يأخذونهن قسرا أو يغتصبونهن ثم يقتلونهن.

- ١٤ -

أحـمـد لم يـكن يقُصُّ عليَّ كل شـيء، لأننـى لم أكن أتردد فى إظهار استيائى من هذا العنف المتزايد.

عندمـا يكون فى حالة نـفسـية طيـبة، كـان يرد على أسـئلتى ويحكى لى بعض أفعاله الإرهابية التى قـام بها مع الأخوة. عندما كان يعود منتشيا كنت أدرك أنه قام بعملية قاتلة. كان يقول بزهو المنتصر : «الانتـصار على الطاغوت يسير فى الاتجـاه الصحيح». لقد عرفت مثلا، أنهم وراء مقتل الشاب الذى ساعد أبى على إيجاد عمل فى البلدية.

كان شابا ظريفـا خدوما ومهذبا مقدرا من الجـميع. كان يؤدى الخدمة العامة. بعد ثلاثة شهور من انتهاء خدمته، حصل على إذن للذهاب لرؤية والديه. وفى اليوم الذى وصل فـيه إلى حى بوناب، طلب منه المتطرفون أن يتبعهم إلى الجبال. لكنه رفض، كان متدينا لكنه معارض للتطرف.

فى منتـصف الليل، حـاصـروا منزل والديه وأخـذوه بالقـوة وانقطعت اخـباره لمدة طويلة. بعد زواجى، سـألت أحمـد عنه، قال إنه قـتل فى قريـة بالقرب من بليـدا ضـمن أربعـين متطرفـا تم قصفهم بهليكوبتر الجيش.

حكى لى أحمد قصة أحد أصدقائه. كان يعيش فى الكاليتوس ويأتى أحيانا عندى. قتل أخوه الوحيد لأنه استجاب لنداء الخدمة العسكرية. عاد المجند يوما إلى عائلته بتصريح زيارة. شاءت الصدفة أن يلتقى الأخوان ويتشاجرا، فما كان من المتطرف إلا أن خنق أخاه أمام أمه التى جنت.

فى كفر مجاور لنا، قتل المتطرفون فلاحا وشى به ابنه. هذا الفلاح رفض أن يعطيهم بندقية الصيد التى يملكها، ونفى أن لديه سلاحا. فتشوا المنزل وقلبوه رأسا على عقب دون جدوى فانصرفوا. لكن ابنه ذهب إليهم وأكد لهم أن والده لديه سلاح يخفيه، وليظهر لهم حسن نواياه اصطحبهم إلى منزل أبيه وساعدهم فى العثور على البندقية التى كان والده يخفيها فى مخبأ.

خنق المتطرفون الأب أمام ابنه، الذى جعلوه بطلا بعد ذلك.

أول اغتيال فى حى بوناب كان للشاب ناصر، مراهق فى الخامسة عشرة من عمره. خطؤه الوحيد أنه كان يتردد على رجال الأمن.ويتحدث إليهم. أوامر الجماعة لجميع سكان الكفر كانت صريحة وتنص على مقاطعتهم. امتثل الجميع وأطاع إلا ناصر. ذات مساء، ذهب المتطرفون عند والديه وطلبوا العشاء. رحب بهم مضيفهم، لكنهم فجأة قاموا وطلبوا من ناصر أن يتبعهم على عتبة المنزل، أطلقوا عليه عيارا ناريا فى رأسه.

دفن ناصر فى اليوم التالى دون أن يجرؤ أحد على أن يتقدم ببلاغ للشرطة. كان ذلك قبل عام من زواجى. أم ناصر قالت لى أن أحمد كان معهم. ناصر، على الأقل، مات فى هدوء، غيره كانوا يعذبونه قبل الموت. فى يوم، أوقف المتطرفون أحد رجال الشرطة

فى حـديقـة، وسـألـوه : «ماذا تعـمل؟» كـانت بطاقـة العـمل التى وجدوها فى جيبه تثـبت أنه من رجال الشرطة. لم يستطع الكذب، حاول أن يجد مهربا فقال : «لست سوى طباخ فى الشرطة».

ردوا بسخرية : «أنت إذن من تطعم هؤلاء الخنازير».

وبدأوا يمزحـون معه، على حد قـول زوجى، استخرجـوا إحدى عـينيه بسلك من الحـديد الصـدىء وجدوه فى الأرض وقـالوا له : «سنترك لك الأخرى لتـرى ماذا سيحدث لك». بـدأوا بتقطيع أجزاء من جسده : أصابع أقدامه، ثم أصابع يديه واحدة واحدة ثم مزقوه إربا. كان أحمد يضحك ملء فمه وهو يحكى هذه الوقائع المفزعة.

هناك بعـض المواطنين اسـتـفـادوا من الإرهـاب لتـخـليص حـساباتهم. مـثل ذلك الرجل الغنى الذى كـان مـعتـادا أن يعطى الكثير من المال لجيا. كان يمـتلك مصنعا لمواد البناء، وكان يعطيهم حتى ٥٠٠ الف دينار فى الشهر.

فى يوم ذهبت إليه مجـموعة مسلحة لتـأخذ النقود، طلب منهم أن ينتظروا لحـظة. خـرج من البـاب الخلفى واسـتـدعى رجـال الشرطـة، ثم عاد بسرعـة وتحدث إليـهم وكأن شـيئا لـم يحدث. حـضر رجـال الشرطة بسـرعة وقـبضـوا عليهم دون أن تحـوم الشبهـات حول هذا الثرى الذى تمتع بالسلام، فلم يـعد المتطرفون لابتزازه.

بعد ذلك بعدة شـهور، اشترى ذلك الثرى قطعة أرض بالمشاركة مع آخر ليعيد بيعها، شـعر الشريك بأن الثرى خدعه. ولينتقم منه ذهب للمتطرفين وحكى لهم أن شريكه هو الذى أبلغ عن زملائهم.

ولقـد ذهب المتطرفون إلى منزل الثـرى وذبحوه وقطعـوه إربا وبعثروا أشلاءه أمام منزله.

إنهم لا يعرفون معنى الصفح، فهم بلا رحمة، ما إن يشكوا فى أحد حتى يقتلوه، دون التحقق من حقيقة هذه الشكوك. أحكامهم صارمة، مهما كانت درجة الاخلاص والطاعة التى أظهرها لهم الشخص فيما مضى. مثل حالة جمال. كان واحدا منهم، مسئولا عن جمع الفلوس من حى بوناب والمزارع المجاورة، ليعطيها للأمير. فى يوم، قرروا اغتياله لأن واحدا قال لهم إن جمال لديه استعداد لخيانتهم والإبلاغ عنهم. هذا ما أشاعوه. لكن آخرين يقولون إن أحمد واثنين من اصدقائه سرقوا الفلوس وقتلوه حتى لا يتكلم.

إن قسوة وفظاعة الإخوة ليست لها حدود، فالدم يقطر من أيديهم. قتلوا امرأة شابة من قرية باب على لأنها كانت مخطوبة لأحد رجال الشرطة. هذه المرأة كان لها أسنان ذهبية، حين عاد أحمد للمنزل قال لى بلهجة باردة : «كنت أريد أن أنزع أسنانها الذهبية وأحضرها لك، لكنها كنت مثبتة بقوة».

ارتعدت من الفكرة. لكن بالتأكيد لم استطع أن أعبر عن ذلك. بعد زواجنا، لم يشترك أحمد فى القتل، كان متخصصا فى تصنيع القنابل على الأقل هذا ما كان يقوله لى.

فيما بعد، عرفت أنه لم يكن بعيدا تماما عن الاغتيالات، وأنه كان يقوم بها بسرور.

فى جماعته، كان هناك متخصص يقوم بالخنق والتعذيب. كان صبيا فى الخامسة عشرة من عمره. قبل أى عملية، كانوا يعطونه مخدرات عن طريق الحقن أو على شكل أقراص.

هذا الصبى أصبح بلا قلب بعد أن شاهد إخوته الأربعة ـ وكانوا من المتطرفين ـ يقتلون أثناء اشتباك مع قوات الأمن. كما

قصفت طائرة هلـيكوبتر منزلهم وكانت أمه بالداخل. كـان الوحيد الباقى من الأسـرة. منذ ذلك الحـين، لـم يعـد يفكر إلا فى الثـأر والعنف. كـان يحـضـر من وقت لآخـر عندى. كـان يلبس مـثلهم جلبابا وشـاشا أخضـر. كان يتكلم مثل شـيخ عجوز، كـان يحمل كـراهية شـديدة لرجـال الأمن والشرطة. هـؤلاء، كانوا يرتكبـون أحيانا أعـمالا مفزعـة. كما حدث فى محطة أتوبـيس بن رمضان، كنت أنتظر الاتوبيس، رأيت رجـال الأمن يسـحلون خلف سيـارة جثـة رجل. كان عـاريا تماما وليس هناك إلا قطعـة ورق صغـيرة تستـر عورته، كان بلحـية وشعـر طويل. كانوا يلفـون به شـوارع المدينة وهم يطلقون صيحات الفرح، وسكان المدينة يصفقون.

كل من كان ينتظر الاتوبيس صدمه المشهد، وتأرجحت المشاعر ما بين الرعب والرهبة والفضـول. لم أستطع أن أبرح مكانى فلقد تسـمرت فـيه. انخـرطت فى البكاء حـين جال بخـاطرى فكرة أن ما يحدث أمامى يمكن أن يحدث لزوجى.

عندمـا كان أحـمد يحكى لى عن الفظاعـات التى يقوم بهـا هو والجـماعـة، كنت أنظر ليديه وأقـول له : «كم من شـخص قتلتـه بهاتيـن اليدين؟» خوفى منه كـان يزيد يوما بعـد يوم، لأننى كنت أعرف أنه - وإن كان يحبنى - بلا رحمـة. كنت متأكدة أنه لو شك فى عقيدتى لحظة لن تأخذه بى رأفة.

الكفر هو أشنع الجرائم بالنسبة لهم، والعقوبة التى يفرضونها على الطاغوت تعد مخففة بالنسبة لعقوبة الكفر.

ولقـد قال لى أحمـد : « لو أن أمى أو أحـد إخـوتى ارتد يوما، فلن أتردد فى عـقـابهم بيـدى » . إذن مـاذا سـيكون حـالى أنا «أم المؤمنين»!!

- ١٥ -

عمل أحمد كان محـددا فى تفخيخ السيارات وصناعة القنابل. فى اليوم المحـدد للعملية يـقوم متطوع بقـيادة السيـارة وهو يعد طبقا لطقوس خاصـة. فيضعون له الحناء فى يديه وينظف أسنانه بالسـواك ويتعـطر بالمسك.. الخ. وهم يبـررون ذلك بأنه يجب أن يكون جميلا عند مقابلة الله.

كان أحـمد مـتلهفـا على القيـام بإحدى هذه الـعمليـات، وكان يريدنى معه فى إحدى هذه السيارات المفـخخة لنموت سويا. ولقد حاول اقناعى بهـذه المنزلة العالية، ولكنـى رفضت فلم يكن عندى رغبة فى الموت.

مرة أخرى عرض علىَّ طريقة أخـرى للاستشهاد. وضع قنبلة فى مدخل منزلنا، أقوم بجذب خيوطها فى اللحظة التى يصل فيها رجال الشرطة والأمن الذيـن يتبعوننى. هنا تنفجـر القنبلة ويدمر المنزل وأنا فيه وكذلك رجال الشرطة والأمن.

ولكنى رفـضت هذا العرض أيضـا. عندمـا كنت أحكى لوالداى عروض أحـمد، كانوا يتعـجبون ويتسـاءلون : «أليس هناك سوى الموت ليتـمناه لك؟» كنت أفكر أحيـانا فى أنه يريد أن يرانى ميـتة قبله لأنه كان متأكدا أنه لن يعيش طويلا. فالكثيرون من أصدقائه ماتوا بهذه الطريقة.

بالنسبة للقنابل، كنت أعرف أنه جهز منها الكثير. كان يعود بعد تصنيعها عصبيا ومتعبا. كان ذلك يحتاج منه لتركيز شديد، لم يكن يصنعها فى المنزل، لكن فى منطقة أولاد علال حيث يوجد للجماعة معمل. كان يجهل أثرها كانوا يزرعون هذه القنابل ليلا، فى الأماكن المستهدفة وخاصة المناطق العسكرية. شاهدتهم يأخذون معاول وجواريف من المنزل ليحفروا بها الأماكن التى سيضعون فيها القنابل.

أحمد كان مكلفا بمنطقة حى بوناب والقرى المجاورة. كل منطقة كان لها شخص متخصص فى المتفجرات.

عندما يؤدى تفجير قنبلة لموت عدد كبير، كان هذا دليلا على نجاح التصنيع. فى يوم، وضعوا قنبلة شديدة الانفجار أمام فندق فى بن رمضان. أدت لموت عشرة من رجال الشرطة والأمن. يومها، كان أحمد سعيدا بدرجة لم أره فيها من قبل، وظل هكذا لعدة أيام بعدها. من بين القتلى ، كان هناك زوج امرأة أعرفها وهى أم لطفلين. عندما قابلتها بعد الانفجار بعدة أشهر، قالت لى : «زوجك قتل زوجى، لكنى لا أتمنى لك نفس المصير، فأنت تعيسة مثلى، وهو يصنع بيديه شقاء ابنه الذى سيأتى. نحن الاثنتان ضحايا».

مزقت قلبى بعبارتها، كرهت أحمد فى هذه اللحظة.

مرة أخرى، وضعوا قنبلة على أحد الطرق المؤدية إلى الكاليتوس، ترتاده دورية عسكرية يوميا كان أحمد يتوقع انفجارها لحظة وصولهم، لكنها انفجرت قبل ذلك ببضع دقائق. عرف رجال الأمن أن أحمد هو الفاعل. ولقد حاصروه فى الحقول

والحدائق، لكنهم لم يتمكنوا من القبض عليه. لم تقتل القنبلة أحدا، ولكنها سببت حفرة كبيرة وسط الطريق. فى هذا اليوم، وبسبب عدم القبض عليه، جاءت الشرطة وأخذت أخاه.

فى المساء، عاد أحمد متسللا للمنزل، كتب لى رسالة وألقاها فى فناء المنزل حيث كنت أتحدث مع إحدى الجارات، وغادر سريعا. طلب منى، فى الرسالة، ترك المنزل لعدة أيام والاختباء عند أخواله حتى يتم إخلاء سبيل أخيه.

فعلت ما أمرنى به. تغيبت لمدة ثلاثة أيام. حجزوا أخاه لمدة ٤٨ ساعة فى زنزانة ثم أخلوا سبيله. بالنسبة له امتد اختفاؤه أسبوعا. آخر قنبلة انفجرت فى حى بوناب كانت فى المدرسة. فى هذه الليلة قام المتطرفون بتقطيع جثث الفتيات الخمس. فى صباح اليوم التالى قام نقيب قسم الكاليتوس بزيارة والدىّ وسؤالهما عن مكانى. بعد استجوابهما، مر النقيب أمام المدرسة التى كان على سورها الخارجى ملصق للجماعة، لم يكن إلا فخا. فى اللحظة التى نزعه فيها انفجرت القنبلة قتل لتوه ومعه أربعة من رجال الأمن.

ولحسن الحظ أن المدرسة كانت خالية فى هذا الوقت المبكر.

مقتل هذا النقيب سبب ألما وحزنا عميقا للناس، فلقد كان محترما ورقيقا ومهذبا مع زملائه ومرؤوسيه والجمهور. كان واحدا من القلائل فى حسن تعامله مع من يستجوبهم، يطرق الباب بكل أدب ويحيى أهل البيت ويكلمهم بذوق ودون غلظة.

ولقد أفتى أحمد لنفسه، بأنه لا يقتل ولكن يديه هى التى تلقى القنبلة. والله هو الذى يأمره بأن يفعل ذلك ويوجه يديه لفعله.

وعندما سألته : «ألا يقلقه موت الأبرياء؟» أجاب ببرود : «إنها الحرب، وهناك دائما ضحايا أبرياء، كما أن هؤلاء يذهبون للجنة فهم شهداء».

الموت، نراه ونعيشه كل يوم فى حى بوناب، لكن بالنسبة للمتطرفين فهو لعبة. فى يوم، كانت هليكوبتر الجيش تحلق فوق رؤوسنا. رجال الجيش والأمن يطاردون المتطرفين الذين هربوا فى المزارع والبساتين. استعانوا بشرطة الكاليتوس، وهؤلاء أرسلوا دورية قامت بحصار الكفر. اختفى المتطرفون وراء الأشجار. جارنا حميد نجح فى ادخالهم عنده، وعبروا من فناء لفناء حتى وصلوا عندى واختبأوا فى المخبأ.

أثناء ذلك، كانت الهليكوبتر تتابع صيدها، فتش رجال الشرطة بيوتا كثيرة ولم يصلوا عندى. فلقد تم بناء منزلى بطريقة لا يظهر معها مدخله من الشارع. وعادة ما يخلط بينه وبين المنزل المجاور، فهناك كثير من الواح الصفيح المتراصة والتى تكّون السور الخارجى. ولكى يدخل أحد المنزل عليه أن يزيح أحد هذه الألواح وهو ما يجهله رجال الشرطة.

أخيرا ذهب رجال الشرطة، وخرج أحمد وزملاؤه من المخبأ، وطلب منى أن أجهز لهم الطعام.

ما حدث لم يفزعه بل وجده مسليا. شعرت بأنانيته، وهو فى مخبئه تحت الأرض، لم يفكر لحظة فى تلك التى كانت ترتعد من الخوف وحدها فى فناء المنزل، عانيت خلال تلك اللحظات من تقلصات فى المعدة، فخلال ساعة كانت الهليكوبتر تلف فى السماء

وتوقعت أن تقصف الكفر كله. ولو حدث ذلك فسأكون أول الضحايا.

بعد ذلك، تناول أحمد وزملاؤه الغداء وخرجوا وكأن شيئا لم يحدث. لم يكونوا وحدهم الأنانيين، لكن حماتي أيضا. فلقد ظهر جشعها. كانت تعرف أن عندي نقودا في المنزل، وما إن سمعت صوت الهليكوبتر حتى طلبت مني أن أعطيها لها.. عندما شاهدتها تأتي مهرولة ظننتها خائفة على حياة ابنها. لكنها اعترفت لي بكل وقاحة، أنه لو كان محتما أن نموت، أنا وزوجي، أثناء القصف فليس هناك سبب لضياع النقود!! لكني لم أعطها النقود.

إن تهاون سكان حي بوناب مع المتطرفين، الذين يعرفونهم واحدا واحدا ولا يجهلون شيئا عن أفعالهم وسلوكهم، هو الذي سمح للإرهاب أن يتفشى في كفرنا.

منذ ثلاث سنوات وجيا تبتزهم. بعد هذه السنوات السوداء، تجاسر رجل يدعى صلاح الصيدلي وكسر هذا الحصار. فلقد شاهد تعذيبهم لصبي في الخامسة عشرة، ابن أخت أحد رجال الأمن، ثم تمزيقهم لجسده. لم يتحمل صلاح ذلك، في اليوم التالي ذهب للشرطة وقص عليهم ما يعرفه، وأخبرهم أن إخوة زوجي متعاونون مع جيا يعطونهم الطعام وكذلك السيارة ليتنقلوا بها.

بعد هذا البلاغ، قتل رجال الأمن إخوة زوجي. وانتقل صلاح، تحت حماية رجال الجيش، من الكفر. ساعدوه على الحصول على مسكن في مكان آخر.

جاء المتطرفون ليبحثوا عنه بعد ذلك. ولم يجدوه، فأشعلوا النيران في منزله.

رجال الشرطة، ظلوا لمدة طويلة مـتهاونين بشكل غير مـفهوم. ربما لم يكونوا قـد أعدوا أنفـسهم لظاهرة الإرهاب، أو ربما كـانوا خائفين، بكل بساطة. فهم لا يجهلون وجود جماعات مسلحة، حتى وإن لم يشاهدوها.

كانوا يعرفون أن هؤلاء المتطرفين مـوجودون فى القرية، لكنهم لم يبحثوا عنهم بجدية.

عندمـا كـانوا يعلمون بمـقتل مـواطن، لا يحـقـقون فى الأمـر ولا يسـألون عن الفاعـل. بل تركوا الأمـور على علتـها حـتى أن السكان اعتقدوا أن السلطات نسيتهم وأهملتهم. وظنوا أن جيا هى الأقوى، وأنها يوما ستحتل موقع هذه السلطات.

منذ أصـبح القتـل والاغتـيال شـيـئا عـاديا، وتطايرت رؤوس الضحايا ومزقت أجسادهم وألقيت أمام منازلهم، ودمرت المدارس وحرِّقت، منذ ذلك الحين فهم سكان القـرى أن عليهم أن يتصرفوا ويدافعوا عن أنفـسهم بعد أن تحققـوا من المساوىء التى يمكن أن تسببها جيا. هنا انقلبوا عليـها وطلبوا السلاح لكى يقاتلوها دفاعا عن حياتهم.

- ١٦ -

كان الموت يحصد الكثير من المتطرفين، لكنهم كانوا يبحثون عنه، ويلعبون معه، من بين أصدقاء زوجي الذين ماتوا شبابا، محمد زوج فاطمة، الذى كانوا يسمونه «أبو الشعور» بسبب شعره الطويل الغزير.

وكذلك مراد وجلالى اللذان قتلا فى المزارع أثناء مطاردة رجال الأمن لهما. أحمد كان يحب أخوته فى جيا اكثر من أخوته الحقيقيين.

كان يحب رشيد بصفة خاصة، وكان يريد أن يسمى ابننا على اسمه. يوم وفاته كان زوجى معه. كانوا ثلاثة : محمد، أحمد ورشيد. عندما وصلت قوات الأمن للبستان، نجح أحمد فى تسلق شجرة بدون أن يروه، كما أسرع محمد بالهرب بين الأشجار. أصابوا رشيد برصاصة فى صدره، فسقط بجوار بئر جاف ولم يمت على الفور.

ظن رجال الجيش أنه مات، فلم يعيروه اهتماما، وذهبوا يقتفون أثر محمد.

فى الجيب الداخلى لسترة رشيد، كان يحتفظ بمستندات هامة، رغم إعيائه الشديد، نجح فى خلع السترة الجلدية وألقاها فى البئر.

شاهده أحمد من أعلى الشجرة. انتظر حتى يزول الخطر. عاد رجال الجيش بعدما فشلوا فى القبض على محمد، حملوا جسد رشيد - مات بعد يومين فى المستشفى . ولم يلاحظوا انه لا يرتدى سترته.

بعد انصرافهم، نزل أحمد من على الشجرة وأخذ السترة من البئر أخرج المستندات، وذهب بالسترة والساعة الموجودة فى أحد جيوبها واعطاهما لأم رشيد.

هناك أيضا عمر، كان يعيش فى بابا على. كان يأتى أحيانا ليستحم عندنا. كان الوحيد النظيف والذى يبحث عن الاستحمام من وقت لآخر.

المشكلة، أنه لم يكن عندى حمام، لذلك كنت أجمع كل الأشياء الموجودة على الأرض، وكنت أضع له طستا كبيرا فى الحجرة.

بالطبع كان الماء ينسكب منه، فكنت أقوم بتنظيف الحجرة بعد ذلك، عمر مات، على إثر اشتباك مع قوات الأمن فى سيدى موسى وعمره لا يزيد عن ٢٢ سنة.

عندما كان يموت أحدهم، كان أحمد يبكيه بحرارة. كنت أعرف أنه لا يعانى الحزن فقط لكنه يغبطهم لأنهم سبقوه للجنة، كان يرجو أن تأتيه النهاية سريعا. كان يطلب منى كثيرا أن أدعو الله أن يختاره لجواره اثناء معركة. لكنى لم أدع له بذلك أبدا.

كانوا جميعا يتمنون الشهادة، كانوا يخشون أن يقبض عليهم أحياء ويعذبو.

ثلاثة من أصدقاء أحمد قتلوا عند جارنا «على» الذى اعترف عليهم بعد أن كان حليفهم. كانو يثقون فيه ثقة عمياء. لكن «على»

قرر أن يبتعد عنهم عندما طلبوا منه أن يحفروا عنده مخبأ يتصل بنفق بالمخبأ الموجود عندى فى المنزل.

لم يكن أمامه إلا الإعلان عن موافقته. بدأوا الحفر، فى ثالث يوم دعاهم للغداء عنده. عندما وصلوا كان رجال الشرطة فى انتظارهم. كانوا أربعة من الأخوة، من ضمنهم محمد الذى كان يحمل حقيبة مليئة بالنقود. فتح رجال الشرطة عليهم النيران، مات أحدهم على الفور، الثانى جرح فى ساقه سار بضع خطوات ثم انهار. الثالث زحف حتى وصل لشجرة زيتون اسلم الروح تحت أغصانها.

أحمد، الذى هرب من قبل من رجال الشرطة، أسرع بدخول منزل مجاور، أخذ منه ثلاث فتيات كرهائن، استخدمهن كدرع واق بذلك منع رجال الشرطة من اطلاق النار عليه وهكذا نجح فى الهرب هذه المرة أيضا. فى الصباح، بعد انصراف رجال الشرطة، شاهدت أمى محمد، كان مازال يحمل. حقيبة النقود.

اثناء النهار، عاد رجال الأمن ليأخذوا الجثث الثلاث. يتم ارسال الجثث إلى المشرحة للتعرف عليهم، ثم يخطر أهلهم، ويعطونهم مستند وفاة. هذا المستند يثبت فى دائرة الاختصاص. قوات الأمن هى التى كانت تدفن المتطرفين الذين يقتلون فى اثناء اشتبكات معها.

ولقد استطاع محمد أن ينجو مرة ثالثة بمعجزة. كان عند امرأة فى حوش دوبونيه، وكان هناك أيضا فاطمة وزوجها وصديق آخر. وتم تحذيرهم قبل أن تحاصر قوات الأمن المنزل. فأسرعوا بالفرار ودخلوا منزلا مجاورا دون أن يراهم أحد.

في حجرة الجلوس بهـذا المنزل، كان يوجد ثلاث أسرة. اخـتبأ كل منهم تحت سـرير وأسدلت ربة البيت غطـاءه حتى وصل إلى الأرض.

دخل رجال الأمن للتفتـيش بشكل سطحى، بما أن السكان غير مشكوك فيهم وليسوا من المشبوهين. عاد رجال الأمن لاستجواب النسـاء.

أسدلت فاطمة النقاب على عينيهـا حتى لا يتعرفوا عليها، لكنها عرفت بسبب الخواتم. فهى ترتدى دائما خاتما فى كل أصبع. تذكر أحد رجـال الأمن ذلك، فلقد لفت هذا السلوك نظره اثـناء تحقيـقه معها من قبل. فـى ذلك الحين خلع من يدها واحدا، ولم يستطع أن يأخذ أكثر لانها هددته بأن تخبر رئيسه.

ولتدافع فاطمة عن نفسـها، اتهمت والدها بأنه هو الذى زوجها لأحد المتطرفـين ضد رغبتـها. واستـمرت فى نفيهـا بأنها رأت أى شخص فى هذا اليوم، حتى بعد أن ضربها رجال الشرطة.

فى أثناء ذلك نجح مـحمـد فى الخروج من المنزل المجـاور عن طريق باب خلفى. كان مسلحا، جعل طفـلا يسير أمامه كدرع واق، ولم يلاحظ رجال الشـرطة شيئا. فى المقـابل، وجدوا فى (جراج) المنزل ـ الذى كـانت فيـه النسـاء، أسلحة وكـتب دعوة ومـلابس الجماعة وأشياء أخرى أخذوها عند انصرافهم ثم احرقوا الجراج. اصطحبـوا فاطمـة وصاحبـة المنزل إلى قسم البـوليس وتم إخلاء سبيلهما بعد يومين.

قتل مـحمـد بعد ذلك بعـدة شهـور. اطلق عليه رجـال الجيش النيران أثناء سـيره فى أحـد شوارع حى بوناب. حاول المقـاومة.

اصيب فى فخذه الأيمن لكنه نجح فى تسلق سقف أحد المنازل.

كان معـه مسدس أوتوماتيكى فى جـيبه. أجبـر رجال الشرطة أحد الجيـران، وكان اعزل، على الصعـود للتأكد من موت مـحمد. ما إن أقتـرب الجار منه حتى أخرج مـحمد مسـدسه وأطلق النار عليه. فى هذه اللحـظة وصل رجال الشرطة وأطلقـوا النيران على صدره.

حين كان محمد يلفظ أنفاسه الأخيرة، كان ينادى على أمه بكل قواه.

قبل ثلاثة شهور تركته أمـه وهى غاضبة منه. كانت تعيش من قبل فى فيلا بالقرب من بوفاريق. زوجـها، كان متطرفا، قتل على يد رجال الأمن. وخوفا من أن يقتل أخوتـه أيضا، طلب منها محمد أن تأتى لتـعيش معـه هى وأخوته. تبـعته من مكان لآخـر، فكانت تغير السكن فى كل مرة كان ابنها يغير مكانه.

كان لديها جهاز تليفزيون، كان ابنها يحطم أجهزة الغير، ولكنه لم يستطع أن يفعل ذلك مع أمه حتى لا يؤذى مـشاعرها ومشاعر أخوته. وجاء بعض أعـضاء الجماعـة ليحطموا التليفـزيون، فقالت لهم : أولادى الثمانيـة، محرومون من الذهاب للمدرسـة بسببكم، لا يمكنهم الخـروج فى هذا البرد، وهم فى غـاية الضيق فـاتركوا لهم على الأقل التليفزيون ليـسليهم. لم ينصتوا لرغبـتها وحطموا التليفزيون.

فى يوم، استغلت غياب ابنهـا محمد، وهربت بأولادها الآخرين لتنقذهم ولقـد قرر محمـد أن لا يعتبرها أمـه، لكن فى لحظة موته ندم كثيرا على سلوكه تجاهها.

- ١٧ -

أحمد اختير أميرا فى توقيت سيىء. فلقد بدأت الرياح تتحول عن الجماعة، ولم يعد السكان يساندون جيا، بل العكس، بدأوا يتمردون على قوانينها ويحاربونها بالسلاح.

وقت الرخاء الذى عرفه. خلال السنوات الثلاثة الماضية، طار سريعا. لم يكن أحد يتوقع السرعة التى انتشرت بها ظاهرة الإرهاب.

يوم انتخابات الرئاسة، كان يمثل لأحمد ولى بداية التحول. فمنذ هذه اللحظة بدأ عهد المطاردة والهروب والخوف والمهانة، خاصة بالنسبة لى فقد كنت أواجه كل يوم رجال الشرطة.

فى هذا اليوم، جاءنا بلال أخو زوجى سعيا. كان شاحبا وأنفاسه متقطعة، قال لأحمد أن رجال الشرطة اخذوا أخاه نور الدين وهم يبحثون عنه وعنى. طلب منى أحمد الرحيل، حتى لا تجدنى الشرطة عند حضورها. واقترح على الذهاب عند أخواله فى بن رمضان.

بدأت فى جمع اشيائى، عندما طلب منى تجهيز الغداء له وللإخوة قبل رحيلى. لم يكن يبدو عليهم الاستعجال على الهرب، كانوا دائما يريدون مواجهة الاخطار عن كثب. كانوا هادئين، أما أنا فكنت أعانى من الهواجس.

اصطحبنى بلال إلى بن رمضان. كان مفاجأة غير متوقعة لأخواله. طلبوا تفسيرا. شرحت لهم الوضع دون الدخول فى تفاصيل، غمز لى بلال بعينه لكى أصمت. كان يعرف أن أخواله سيرفضون ايوائى لو عرفوا الحقيقة. لكنى تابعت حديثى، فلم أكن أريد أن أغش من استجير بهم. ما توقعه بلال حدث. فلقد خاف أخوال أحمد حضور الشرطة للبحث عنى وموقفهم أمام جيرانهم فى هذه اللحظة.

ولقد أحضر بلال أمه لتقنعهم ببقائى بضعة أيام. توسلت لإخوتها وهى جاثية على ركبتيها. انتهى الأمر بالموافقة على استقبالى لعدة أيام فقط. الذى جعلهم فى الحقيقة يغيرون رأيهم، تهديد حماتى من غضب أحمد إذا رفضوا تقديم هذه الخدمة له.

الأخوال الثلاثة، كانوا يعيشون فى منازل متجاورة. كانوا يعلمون، منذ مدة طويلة، العلاقة الوثيقة التى تربط ابن اختهم بجيا.

ولقد قالت لى زوجاتهم أنهم اخفوا أحمد كثيرا من قبل. فى هذه الفترة لم يكن مطلوبا، لكن رجال الأمن فى بن رمضان كانوا على علم بنشاطاته.

كان سكان قرى منطقة ميتيجا يعرفون أنهم لكى يتفادوا أى مشاكل مع قوات الأمن، فمن الأفضل عدم تواجد أى غريب فى منازلهم عند حضور هذه القوات للابتعاد عن الشبهات.

أمضيت أسبوعا لدى أخواله، كان أحمد سعيدا بتخلصه من همى، لكن أخواله توسلوا إليه أن يأتى ليأخذنى.

حضر، وهو يأمل أن يقنعهم ببقائى لعدة أيام أخرى دون إثارة

حفيظتهم. كان يخشى أن ينتهى الأمر بأن يبلغوا عنه.

بعد تفكير، وجد أن المكان الأكثر أمنا بالنسبة لى، حى بوناب حيث يعرفه الناس ويخشونه. لكن عليه أن يجد منزلا، غير منزلنا ومنزل أسرتى. اصطحبنى إلى منزل على، كان عاملا فى أحد مصانع الأثاث بالعاصمة. كان صديقا لأحمد، لم يكن عضوا فى جيا، لكنه كان يساعدهم، فى المقابل كانت الجماعة سخية معه وتعطيه نقودا شهريا، ولقد اشتروا له مواد البناء ليوسع منزله.

فلم يكن لديه إلا حجرة واحدة ومطبخ، لكنه استقبلنى بكل ترحاب. كانت بناته صديقاتى. جهزن لى فراشا معهن حيث ينمن فى المطبخ مع أمهن. بينما هو وأولاده ينامون فى الحجرة.

فى اليوم التالى، أرسل إحدى بناته إلى مدية حتى أحل محلها. قال لى : «أنت الآن بدل كريمة، ولو جاء رجال الشرطة ليس عليك إلا أن تقولى إنك كريمة» نادانى الجميع باسم كريمة، حتى إننى بدأت اعتاد عليه. بالرغم من هذا الموقف الصعب، إلا أن أحمد لم يخفف أوامره. كان يطلب منى أن أقوم بنفس واجباتى السابقة نحو الجماعة. كنت أقوم بتحضير طعام الجماعة، فلقد كانت خديجة زوجة أحمد متحملة عبء اسرتها المكونة من عشرة أفراد. كانت تجد نفسها مجبرة على مساعدتى، عندما ترانى أسبح فى عرقى أمام الموقد.

رغم نيتها الطيبة، لم تكن ذات فائدة كبيرة لى، فمعرفتها بالطهو كانت محصورة فى الأطباق الريفية.

كان أحمد يتصرف على راحته عند على، كان يأتى أحيانا ليقضى الليل معى. هذا الوضع كان يجبر العائلة كلها على قضاء

ليلتهـا فى المطبخ ليتركوا لنا الحـجرة الوحيدة. فى أحـيان أخرى، كـان يظل معى بضع سـاعات ثم يـرحل فى منتصف الليل، كـان الجميع يظل ساهرا حتى انصرافه.

أمضيت شهرا عند على.

فكرة إحلالى مـحل كريمة سارت على مـا يرام. فى أول الأمر، لاحظ رجال الأمن حركة غير عـادية فى المنزل فى الصباح الباكر. عندما جـاءوا ليستفـسروا عن الأمر من على، رد ببســاطة : «إنها ابنتى كريمة» ومد لهم يده بالبطاقة العائلية، فانصرفوا.

مرة ثانيـة، كنت أتناول افطارى، حين دخل رجـال الأمن، وجه أحدهم حديثـه لخديجة وطالبها بأن تخـرج المتطرفين من أبنائها، وأجابت عـليه بأنه ليس لديهـا ابناء متطرفـون فرد قـائلا : «لكننا نعرف أنـك تساندينهم» وبدون انفـعال قـالت له : «لو عندك دليل اظهره».

فتشوا المنزل فلم يجدوا شيئا. أثناء استجوابهم لها، تذكرت أن أحمد ترك جلبابه على الفراش حيث قضى الليلة السابقة.

أسـرعت إلى الحجرة وأخفـيت جلبابه تحت ثوبى. كانت خديجة رائعة فى هذا اليوم. عندما كانوا يوجـهون لى أسئلة كانت تتدخل لتصرف انتباههم عنى. كانت تخشى أن يتعرف أحد الجيران علىّ. فأسـدلت الخمـار الذى كنت ارتديه على عـينى بحيث غطـى جزءا كبيرا من وجهى، كما أن الحمل غيرنى كثيرا.

رجال الأمـن زارونا فى هذا اليوم، لأن فى اليـوم السابق قـتل ابن أخت أحدهم ووجدت جثته ملقاة فى أحد الأودية.

ولقد بلغ صـلاح الصيدلى الشرطة بأن أحـمد وجماعـته وراء الحـادث.

انصرفـوا من منزل أحمد، وتوجـهوا لحماتـى، طلبوا من اثنين من ابنائها أن يتـبعوهمـا. كذلك فعلوا مع أبى واثنين من جـيراننا الشبان. كـامل ورفيق كان إخوتهـما من المتطرفين، كانـا من أكثر شباب الكفر رقة ولم يتعاونا مع جيا. اصطحبوا هذه المجموعة إلى حيث وجدت جثة الصبى، تركوا أبى ينصرف بعد أن شـهد صلاح الصـيـدلى أن ليس له أى صلة بالمتطرفـين، ولم يقـدم لهم يومـا مساعدة.

قتـل رجال الأمن الشـباب الأربعـة، وألقوا بجـثثـهم فى نفس الوادى الذى وجدت فيه جثة المراهق ابن أخت رجل الأمن.

كانوا يعرفون أن الأخبار سـتصل لأحمد، وكانوا بسلوكهم هذا يقدمون تحـذيرا لكل سكان الكفر فحواه : «انتم قـتلتم واحدا منا، ولقـد رددنا بقتل أربعـة. لو أوذى أحدنا بعـد ذلك، فسـيكون ذلك مصير رجال الكفر جميعا».

«على» كان مذعورا فى ذلك اليوم، أما خديجة فلقد تجلدت.

لم يكف على عن ترديد عـبارة «سـيقـتلوننا جمـيعا». وعـندما تماسك خـرج ليسـتطلع الأمـر فى الكفر. عـاد بعـد نصف ساعـة ليخبـرنى بمقتل أخويى زوجى وأن علىَّ تدبيـر مكان آخر لأعيش فيه، فهو ليس على استعداد لدفع ثمن بقائى معه.

مقـتل أخى زوجى الكبـير سبب لـى الكثير مـن الألم والحزن، ولقد بـكيت طويلا، فلقد كـان طيبـا معى. كـان الوحيـد من أسرة زوجى الذى يعاملنى برقة.

- ١٨ -

على طردنى من منزله، أيدته خديجة فى قراره. كنت خائفة من الخروج وحدى بدون تحقيق شخصية، وكان رجال الشرطة منتشرين فى كل مكان. شرحت لخديجة حرج موقفي، وطلبت منها أن تخرج معى على أنها أمى. وافقت على اقتراحى. خرجت معنا ابنتاها.

وجدنا أنفسنا أمام رجال الأمن. كنت أرتدى النقاب، رفعه رجال الأمن ليتعرفوا على وجهى. سألنى أحدهم : «أين تذهبين؟».

شعرت اننى سأنهار. أحست خديجة بارتباكى. أمسكت بذراعى لتسندنى. أجابت بدلا منى قائلة : «هذه ابنتى كريمة، سأذهب بها للمستشفى». ومدت يدها بالبطاقة العائلية.

عندما تأكد من وجود اسم كريمة بالبطاقة، إعطاها إياها وتركنا نكمل طريقنا.

التقطت أنفاسى. لم تعرف خديجة أين تذهب بى. أخذتنى عند بعض أفراد عائلتها فى الكاليتوس. عندما دخلنا عندهم، اندهشوا لحضورها مع غريبة. فلقد أصبح الناس حذرين ومرتابين، قدمتنى على أننى إحدى قريبات زوجها. لم تكن قد قدمت بعد تفسيرا لزيارتنا المفاجئة حين دخل رجل منزعج وقال : « رجال الأمن

يبحثون عن امـرأة وزوجها ليقتلوهما. وعندمـا لم يجدوهما، قتلوا اخوته، أمـهما جنت، فـهى تصرخ وتولول فى الشـارع». خفت أن يكون الرجل قد تعـرف علي. جف حلقى، وشعـرت بالعرق ينضح من جسدى. طلبت من خديجة أن ننصرف لكنها نصحتنى بالتريث قليلا حتى لا نثير الشبهات. شربنا القهوة، واستأذنا من مضيفنا. عـدنا إلى حى بوناب، فلم يكن الوقت مناسـبا لـلبحث عن ملجـأ، فالجميع يشك فى الجميع.

من بعيد شاهدت حماتى، كان شعرها مكشوفا، هى التى كانت دائما مـحجـبة، تمرغت على الأرض التى شهـدت مصـرع ولديها. اصطبغ ثـوبهـا الأبيـض بلون الدم والطيـن. كـانت تنـدب وتلطم الخدود وعـويلها يمزق القلـب. كانت تروح وتجيء بجوار جـثتى ولديها وهى تعوى كحيوان جريح. كان منظرها يعصر قلبى كدت أذهب إليهـا لأواسيها لكن خـديجة منعتنى. كانت تعـرف الكراهية التى تكنها لى حماتى، وستتهـمنى فى حالتها هذه بأننى المسئولة عن مـقتل ولديهـا المفـضلين، وربما أبلغت عنى الشـرطة وهى فى هذه الحالة الهستيرية.

ظلت حماتى على هذه الحال، فلم يكن أحد يجرؤ على الاقتراب منهـا. كـانت منهـارة وعلـى وشك الجنون. بعـد سـاعـة من هذا السيناريو المقبـض، تجرأت امرأة. فقدت أبناءها من عـدة شهور - وذهبت إليها، استطاعت بعد جهد وصبر أن تقنعها بالعودة لمنزلها.

بالنسبـة لى، أعادتنى خـديجة لمنزلهـا. عندما وصلنا أخـبرتنا ابنتـها أن أباها نقل للمـستشـفى، فلقد أصـيب بذبحة. كـان يوم جمعة، ولقد ذهب على للصلاة فى جامع بمنطقة براقى ليخرج من

جو الخوف الذى كان مسيطرا عليه. هناك سقط فاقدا الوعى.

وجهت لى خديجة نظرات اللوم والعتاب، لكنها لم تنطق. فى اليوم التالى، خرج على من المستشفى. قال بصراحة، إننى يجب أن أترك منزله فهو لا يريد أن يموت أو أحد من أسرته بسببى. فكرة أن أخرج للعراء كانت تخيفنى لدرجة أننى وجدت الشجاعة لأقول له : «عندما كان زوجى قويا ولديه سلطة، كنت ترحب باستقبالى، والآن بعد تغير الأوضاع تغيرت أنت أيضا».

ولقد أسأت إليه بهذه الكلمات، ولم يعد أمامى إلا أن أخرج.

كنت يائسة، ذهبت أطرق باب أسرتى. ما إن رآنى أبى حتى أغلق الباب فى وجهى. فى هذه اللحظة شعرت أننى وحيدة تماما، وأنه من العبث أن أبحث عن إنسان يقدم لى المساعدة.

سيطرت علىّ فكرة الذهاب لحماتى التى تحسنت حالتها بفضل مساندة الجيران. لكن ما إن خطوت عتبة المنزل حتى عادت تصرخ وتشتم ووصفتنى بالقاتلة، وقالت بصوت يسمعه الجميع : «أخرجى من هنا، أنا لا أعرفك، لست زوجة ابنى لكن أنت التى قتلت ابنائى».

كنت اقدر آلامها، لكننى كنت أريد أن تقدر عذابى.

بكيت وحاولت أن أثير شفقتها نحوى وقلت لها : «كيف تتهميننى هكذا؟ ألا تقدرين موقفى؟ إننى لا أعرف أين أقضى ليلتى».

لم يكن عندها استعداد للاستماع إلىّ. طلبت منها أن تعطينى البطاقة العائلية التى تركتها عندها، رفضت وقالت إنها تخص ابنها.

خرجت لا أعرف إلى أين المصير، دموعى تسبق خطواتى، أسير بلا هدف. الجيران الذين كانوا يعاملوننى حتى الأمس كأميرة، أصبحوا يغلقون النوافذ والأبواب فى وجهى، خوفا من أن أطلب منهم الحماية.

جاء الليل ومازلت أسير فى الطرقات. عدت لعلى وتوسلت إليه أن يساعدنى فى ايجاد حل، لكنه رفض. اشفقت أمى علىّ، ذهبت إلى والد كامل ورفيق، وطلبت منه أن يؤوينى هذه الليلة. وافق بسبب وجود كثيرين عنده فى هذه الليلة مما سيجعل وجودى بينهم غير محسوس. قضيت عنده ثلاث ليال. فى الصباح كنت أترك المنزل، اتجول طوال النهار فى شوارع الكفر. وعندما لا أستطيع مواصلة السير كنت أذهب إلى منزلى، الذى حرقه رجال الشرطة فى اليوم التالى لهروبى.

كان الجيران يعطوننى كسرة خبز وثمرة طماطم. وبعد أن آكلها أذهب لمنزلى حتى يأتى الليل. تحضر أختى لتزاملنى فى وحدتى، فلقد كانت أمى تخشى من بقائى وحدى فى المنزل المظلم البارد.

كنا فى الشتاء، قبل رمضان ٩٦ ببضعة أيام. لم يكن عندى ما أتدثر به وجدت فى الفناء برميلا صغيرا من البلاستيك، استخدمته كوسادة. وتمددت على كيس كنت استخدمه من قبل كممسحة للأرجل.

لحسن الحظ، وبسبب الحمل، كان يغلبنى النوم. مما ساعدنى على عدم الشعور بالوقت. بعد فترة تعودت على النوم فى أى مكان. كل ليلة، عندما كان يهبط الظلام، كانت أختى تبكى لتركها

لى أقضى الليل وحـدى. كان يجب أن تخـرج قبلى، حتى لا نثـير شكوك الجيران. كنت اتفادى إضـاءة شمعة.

عندما يكـون الظلام حالكا، كنت أطرق باب والد كـامل ورفيق، كان مندهشا من شجاعتى. كنت فى موقف نسيت معه الخوف من الظلام.

فى اليـوم الرابع، أقيـمت جنازة كـامل ورفـيق. كانت الأسـرة حزينة.

ولقد أخـبرنى الأب أن فتـرة استضـافته لى انتـهت. عدت من جديد لمشكلة ايجاد سقف يؤوينى.

قضيت النهار كالأيـام السابقة، وعندما حل الظلام ذهبت لعلى. هددته بدون حيـاء قائلة : «لو لم تقـبلنى عندك، سـأخبـر الشرطة بكل شىء».

أجاب : «لو أبلغت الشـرطة عنى فالتهمة سـتطولك أنت أيضا». كنت مـستـعدة لفـعل أى شىء، فلم يعد لدى مـا أخسـره، وكنت أفضل النوم فى السجن عن المبيت فى العراء.

شـعر علـى بمدى يأسى فاسـتـسلم ووافق على وجـودى فى منزله.

- ١٩ -

بالحظ، حضر أحمد فى هذه الليلة عند على. كان قد مضى أسبوع لم أسمع عنه خبرا. ما إن رأيته حتى بكيت، لم أكن قادرة على السيطرة على غضبى. أغلظت له القول وشتمته، كانت أول مرة أتجرأ وأتحدث إليه بهذه النبرة.

كل المشاعر المحبطة والمهينة والمؤلمة التى تراكمت بداخلى على مدار عام انفجرت فى هذه اللحظة. صرخت فى وجهه قائلة : «أنت تتفاخر بأنك تدافع عن حقوق الناس، وأنا زوجتك تتركنى أزحف من منزل لآخر». وأضفت بحرقة : «أنت لست رجلا».

كلماتى أصابته فى الصميم، ما أحرجه أننى تكلمت بهذه الأسلوب أمام الآخرين. فالإسلام يطالب المرأة بألا ترفع صوتها أمام الرجال، وخاصة أمام زوجها. كان متذمرا، لكنه حاول أن يمتص غضبى ويهدئنى. لكنه عاتبنى قائلا : «كل الناس تعاملنى باحترام وانت تهينيننى هكذا علنا».

غضبى اشتد وصرخاتى توالت، فغير سياسته وقال بحزم : «إن لم تخرسى فى الحال سأقتلك» هددنى بالمحشوشة. رؤية السلاح موجها نحوى كان لها تأثير بالغ، فهو بالفعل قادر على أن يطلق علىّ النار. صمت على الفور. خف التوتر قليلا بيننا، فكر

وقدم لى عرضا: «لو أمى وافقت على أن تبقى معها، سأشترى لها منزلا فى قرية أخرى بعيدة عن هنا وتذهبان لتعيشا معا». قلت له: «لمَ لا تشتريه لى، حتى أجد فى النهاية مكانا ملكى لا يستطيع أن يطَردنى منه أحد». لكنه رفض متعللا بأنه لا يريد أن أظل وحدى، فماذا يقول الناس عندما يجدون امرأة تعيش وحدها.

فى الحقيقة، لم يكن عنده ثقة كاملة فى، فهو يفكر أن امرأة لوحدها تتعرض لكل صور الإغراءات ولو غاب عنى طويلا، فهناك احتمال أن أخونه مع أحد رجال الأمن أو الشرطة.

فكرة أن أعيش مع أمه لم تسعدنى ، لكنى لم استطع أن أرفض عرضه. ما كان يهمنى فى هذه اللحظة أن تنتهى حياة الفزع والقلق وعدم الأمان التى كنت أعيشها. كنت مستعدة لتحمل ملاحظات حماتي القاسية مقابل حياة مستقرة، بعد تفكير، وجد أحمد أن من الأفضل البحث عن منزل بجوار اخوالى فى شيراجا حتى يحمونى. فكرة استقرارى فى مكان خففت عنى وأعادت لى ابتسامتى. كانت أول ليلة أنام فيها بدون كوابيس. استيقظت عند شروق الشمس. فى الساعات الأولى من الصباح، ذهبنا إلى شيراجا، لنطلب من أحد أخوالى أن يبحث لنا فى منطقته عن منزل يؤجر أو يباع قبل تشطيبه، لأنه بذلك يكون أقل سعرا فى الإيجار والبيع.

ما إن رآنى أخوالى قادمة من بعيد، حتى أسرعوا بالدخول إلى منازلهم. فلقد علموا أن الشرطة تبحث عنى، وظنوا أحمد ـ الذى لم يروه من قبل ـ أحد المتطرفين من أصدقاء زوجى. لم يستمعوا لنا فهم لا يريدون التورط بأى شكل. طردونا كاللصوص

وهددونا بإبلاغ الشـرطـة. إذا لم نرحل فـورا. عـدنا نجـر أذيال الخيـبة إلى على مـرة أخرى. فى صبـاح اليوم التالى اصـطحبنى أحمد إلى مزرعة فى منطقة «أولاد عـلال» حيث استضافتنى أرملة مـتطرف كانت تعـيش مع أولادها وحـماتهـا بعـد مقـتل زوجهـا وحماها. قوات الأمن لم تدخل ابدا هذه المنطقة. قضيت أسبوعا مع هذه العائلة زاملتنى هدى لعـدة أيام. فى الليل كان ازواجنا يأتون. بالنهـار، كانت النسـاء تقضى وقـتهـا فى اعداد الطعـام لجمـاعة المنطقة الذين كان عددهم أكبر من الموجودين فى حى بوناب.

كان المنزل صـغيرا على استقبال كل هذه الاعداد، كان مكونا من ثلاث حجرات صـغيـرة ومطبخ، حيث كنت أنام مع أحمد الذى كان بدون شـباك أو باب وكنا نتـقاسـمـه مع هدى وزوجهـا. لم يكن يفصل بيننا وبينهما سوى ستـار من القماش. ولقد نبهت أحمد أن هذا الوضع لا يمكن أن يستمر طويلا.

فى يوم، حضـر أحمد ليخـبرنى أنه وجد لى مكانا سـأسـتريح فيه عند عـائلة تنتظرنى فى بيرتوتا. اصطحبتـنى حماة المرأة التى كنا نعيش عندها. ركبنا معا اتوبيسا تابعا لشركة خاصة تعمل فى نقل الركاب بين المدن، فمعظم اتوبيسات النقل العام حرقت على يد المتطرفين.

عند نزولنا عند مـدخل بيـرتوتا، لاحظت صـاحبـتى، أن هناك حاجزا أمنيا، يقومون عنده بتفتيش ركاب شاحنة أخرى.

لم نكن مـحل شـبـهة، لكـنها خـافت أن يطلبـوا منى تحـقـيق الشخـصية ولم أكن امـتلكها. فى هذه اللحظة، دارت على أعقـابها وتركتنى وحدى وقالت لى : «اذهبى وحدك واعتنى بنفسك».

لحظات التردد مرت، فكرت أن أفعل مثلها ولكننى وجدت أن ذلك سيثير الشبهات. تماسكت وأخذت نفسا عميقا وقررت أن أتابع طريقى. سارت الأمور على ما يرام، لم يوجه لى أحد سؤالا حتى لم يلاحظونى.

لم أكن أعرف المنزل، كنت فقط احفظ ارشادات زوجى عنه، وجدت نفسى أمام الباب المرصود ذى اللون البنى.

من الخارج، كان المنزل يبدو أنيقا للغاية مما ينبىء أن سكانه من الأثرياء. فتح الباب، شاب اعطيته كلمة السر التى كانت اسم ابنهم الموجود فى الجبال، لم يكن أحد غير أسرته يعرفه، رحب بى حضرت والدته وأخواته البنات، كانوا سعداء باستضافتى عندهم.

نظرة سريعة على المنزل من الداخل، ادركت بالفعل أنهم اثرياء. كانوا من عائلة غالى المعروفة فى منطقة بيرتوتا. كانوا يمتلكون مصنع *مواد بناء فى المنطقة* الصناعية بالعاصمة. كنت جائعة فأحضروا لى الغداء. جهزت لى سيدة المنزل حماما دافئا فى أكبر وأجمل حمام لديهم، كان من الرخام الفاخر. لم استمتع بحمام فى حياتى كما حدث هذه المرة.

أعطتنى ملابس نظيفة تخص بناتها. ثم سألتنى السؤال المعتاد : «هل تجدين حرجا فى الظهور أمام ابنائى، أو تفضلين ألا تريهم؟».

لدى جيا، لا تختلط النساء بالرجال. أجبتها : «انا اعتبر نفسى واحدة منكم، يمكننى الجلوس معهم ولكنى لن أصافحهم باليد.» وافقتنى على رأيى وأضافت : «المصافحة باليد بين الرجل والمرأة معصية لا نفعلها. فالنساء تحيى الرجال من بعيد. هذا يكفى».

كان للسيدة غالى ستة ابـناء، واحد فى الجبال وآخر عضو فى جيا لكن فى المدينة. كـانت العائلة كلها رجال ونساء تسـاعد جيا. كانوا شديدى التدين والتعبد. الفـتيات يرتدين الخمار بصفة دائمة ويصلين دون انقطاع. ويقضين أمسياتهن فى قراءة القرآن.

الرجال، كانوا يحملون أعباء ومسـئوليات العائلة. كانوا سعداء برؤيتى ودائمى السـؤال عن الأحوال فى حى بوناب وما حـولها، فمنطقة نشاطهم لا تتعدى بيروتوتا وما حولها.

فى منتـصف نهار اليـوم التالى، السـيدة غـالى أحضـرت لى ملابس جديدة اشترتهـا لى من بو فاروق. كان أول أيام رمضان، أول يوم أنعم بطعم الراحة منذ عدة أسابيع. اجـتمعت الأسرة كلها على الافطار. ما أن قضـمنا أول لقمة حتى انخرطت السـيدة غالى فى البكاء. فلقد تذكرت ابنها الذى رحل للجـبال وابنتها التى كانت على وشك الزواج. شـعرت أن الـبيت سـيخلو عـليهـا، وهى التى اعـتادت على اجـتمـاع أسرتهـا كمـا كـان لديها اثنان من أبنائهـا يتعرضان للخطر كل يوم.

كان الجو كئيبـا. لحسن الحظ، ما إن انتهى الافطار، حتى دخل أحمد وابن السـيدة غالى إلى الصالون تغير الجـو تماما، وتحولت الكآبة إلى بهجة والتوتر إلى سكينة، وعادت مـضيفتى إلى مكانها على المائدة لتشارك القادمين اللذين فتحا شهيتها للطعام. ظل أحمد مـعى عدة سـاعات، كـان المنزل فسـيحـا، بحـيث يمكننا أن نخلو ببعضنا فى حجـرة منفصلة بدون أن نربك أحدا. ذهب ولم أره إلا بعد أسبوعين.

للأسف، لم ابق عند عائلة غـالى سوى أسبوعين. كـانت الفترة

الأكثر راحـة منذ عرفت أحمد، فلم أنم، منذ زواجـى، ملء جفونى على فـراش وثير فى حـجرة دافـئـة إلا عندهم. كمـا أننى لم أكن مكلفة بأى عمل. كانت السيدة غالى تعاملنى بالحسنى وترفض أن أساعـد بناتها فى أعمـال المنزل، كما كـان عندها خادمتـان. كانت تقول لى بحنان الأم : «استريحى، حتى يكون طفلك القادم بصحة جيـدة». أبناء غالى كـانوا كرماء مـعى، كانوا يحـضرون لى هدايا أخجل من أخذها. كـانت أول مرة اخالط رجالا ليـسوا من عائلتى. كان شـيئـا جديدا بالنسـبة لى، حـتى أننى بدأت أفكر فى أشـياء لا يجوز لامرأة متزوجة أن تدور فى خيالها.

أثناء هذه الفترة، لاحظت أن كثـيرا من المتطرفين يترددون على المنزل وخـاصة ليـلا فى مـجمـوعـات. كانوا يـأكلون ويعقـدون اجتماعات.. الخ.

كانت أسـرة غالى تسـتقبل الكثـيرين. عـدد كبيـر من زوجات المتطرفين كن يزرن السيدة غالى بصفة منتظمة. كوّن رابطة قوية، كانت هذه الزيارات للـتعرف على احـتياجـات بعضهن ومـحاولة توفيرها، فلقد كان ذلك صورة من صور الجهاد.

لم تكن عائلة غالى هـى الأسرة الوحيدة الغنية التى تساعد جيا. كنت أعرف رجـلا آخر يدعى عـز الدين يعيش أيضا فـى بيرتوتا، كان صـاحب مصنع حلويات. ترك أعمـاله ليصعـد الجبل وينضم للجماعة.

- ٢٠ -

فى نهاية اسبوعى الأحلام، اللذين كانا أجمل من أن يستمرا، أرسل لى أحمد رسالة مع شخص لا أعرفه. جاء فى سيارة بصحبة أختيه حتى لا يثيروا الانتباه. اخبرنى أن اتبعه فأذعنت. طوال الطريق، لم ينطق الرجل بكلمة. حاولت أن اطرح عليه بعض الأسئلة فلم يجبنى عليها، حتى أنه لم يخبرنى عن وجهتنا.

بعد أن قطعنا مسافة طويلة، تعرفت على الطريق، كنا فى سبيلنا لحى بوناب. أوقف السيارة عند منزل اسرتى، نزلت، انصرف دون أن ينطق بكلمة. وصل أحمد بعد عدة دقائق. فى البداية عنفنى على إرسالى خطابا له، قبل عدة أيام، مع أحد أبناء أسرة غالى. كنت قلقة عليه، لكنه لم يجب على رسالتى. قال لى : «لقد احرجتنى مع اصدقائى فهم لا يستقبلون خطابات من زوجاتهم».

عندما هدأ، أخبرنى أنه وجد لى منزلا أخيرا.. سعادتى بهذا الخبر المفرح أنستنى قسوته معى. أحمد لم يكن يريد تركى عند آل غالى، لم يكن مرتاحا عندهم كما كان فى حى بوناب. كما أنه كان يرجو ألا ابتعد عنه بعد ذلك.

المنزل الذى عثر عليه، كان منزل خالتى زهرة، وهى امرأة عجوز كانت تعيش وحدها فى حى بوناب منذ هرب أبناؤها من

المتطرفين وذهبوا ليعيشوا في شليف، رفضت أن تتبعهم وتترك منزلها.

استغل أحمد والاخوة غيابها فى هذا اليوم واقتحموا المنزل، جلست فيه ومعى فاطمة.

عندما عادت خالتى زهرة مساء، اذهلها وجودنا حاولنا أن نشرح لها الموقف، لكنها لم تكن تريد أن تسمع، فلقد أرعبتها فكرة أن يقتلها المتطرفون ليأخذوا منزلها.

عندما عاد أحمد واصدقاؤه، رجوا خالتى زهرة أن تبقى لتحرسنا وقال لها أحمد: «إنهما شابتان، لن نستطيع أن نتركهما بمفردهما، وسيكون من الأفضل أن تلازميهما كأم». وافقت تحت تأثير المفاجأة.

فى اليوم التالى، وفى الساعات الأولى من النهار، حملت أشياءها القليلة فى حقيبة وذهبت عند ابنتها، اخذت معها غطاء قديما اخذته من أمى.

وجدنا أنفسنا على البلاط، كانت الأرضية باردة كالثلج، تجمدت أطرافى وارتعشت. ابنة فاطمة الرضيعة كانت معنا. تجولت فى المنزل كله وبحثت فى كل ركن لعلى أعثر على أى شىء يمكن أن يقينا البرد بلا فائدة.

كل ما تركته خالتى زهرة خلفها كان طبلة ملقاة فى ركن. قلبتها وجلست داخلها متفادية الجلوس على البلاط البارد.

فى المساء حضر أزواجنا ليستطلعوا أحوالنا. لاحظوا وضعنا، طلبوا منا أن نصبر حتى الغد ثم انصرفوا لينجزوا أشياء هامة.

فى الطريق، ذهبا لخالتى زهرة عند ابنتها وهددوها بأنهما سيقتلانها ويأخذان بيتها لو لم تعد لحى بوناب وتكون فى

خدمتنا وتسهر على حمايتنا وراحتنا.

كانا يخـافان من أن يأتي أحـد رجال الأمن ويضايـقونا ونحن وحدنا.

عادت خالتي ذهرة فـى اليوم التالى، وجدتنا تجمـدنا من البرد وخاصـة فاطمـة التى خلعت جلبـابها لتلف به ابـنتهـا الرضيـعة. الساعة الواحـدة بعد الظهر، حضـر أحمد ومحمـد فى سيارة نقل محملة بمحـتويات منزل كامل : أثاث، موقـد، أدوات مطبخ، أغطية وملاءات كلها جـديدة ومستوردة. كان هناك أيضا غـسالة ملابس لم اسـتخـدمـها لأنى لم أعـرف كـيف تعـمل وأيضا لأن مـلابس الجماعة كانت قذرة لدرجة لا يمكن للغـسالة الكهربائية أن تنظفها كما يجب.

كانا قد نقلا كل ذلك من منازل اثنين من رجال الأمن اغتالاهما بالأمس، لهـذا كـانا مـشغـولين كـانوا عـادة ينهـبـون منازل من يقتلونهم والمهاجرين الغائبين عن منازلهم وكانوا يعتبرونها غنيمة حـرب. ضمن المحـتويات كـانت هناك ملابس جـديدة، لكن أحمـد لم يحضر إلا الملابس التى لا تعجبنى فلم يكن يتمتع بذوق جيد.

قضينا خمسة عشر يوما اخرى فى منزل خالتى زهرة، خلالها كنا نشعر انـنا فى بيتنا، ونظمنا زواج أحد أصدقـاء أحمد فى هذا المنزل. ولقد جهـزت الجماعة العريس بأثاث كامل بما فـيه الدفاية والمروحة. خالتى زهرة ظلت معنا وأصبـحنا اصدقاء. كانت تعرف الخياطة، خيطت لـنا بعض الأشياء الصغيرة لفاطـمة وابنتها ولى أيضا. فى يوم قالت لى أن هناك نقـصا فى مؤونة المنزل. عرضت عليها أن أصـحبها إلى براقى لنشـترى ما يلزمها من البـقال. فلقد حذرنا أزواجنا من أن نتركها تخرج لوحدها.

في طريق العودة، وبالقرب من المنزل قالت لى : «اكملى طريقك، وسأذهب أنا إلى بلدية الكاليتوس لأقبض معاشى الشهرى» فعلت ما طلبته منى، فلقد كنت أثق بها. لم تعد خالتى زهرة حتى منتصف الليل. أحمد وأصدقاؤه كانوا معنا، ولقد شعروا أن هناك شيئا يدبر فى الخفاء. عندما تركتنى خالتى زهرة، ذهبت إلى الشرطة، وحكت لهم القصة وأضافت إليها من خيالها، عرفنا ذلك فيما بعد.

فى فجر اليوم، فوجئنا بأعيرة نارية. كالعادة كان هناك عضو من الجماعة يحرس بالخارج، حذرتنا طلقاته. حاصر رجال الشرطة المنزل.

بعد هذه المفاجأة المذهلة، انتابنى شعور بالسكينة، أحسست أن لحظة الخلاص قد حانت بعد هذا العذاب الذى مزقنى. بينما كانوا يقودوننا إلى قسم البوليس وما إن بعدنا عن المنزل حتى اجتاحتنى مشاعر الضجر والتعب والإنهاك كنت على وشك الانهيار. شعرت أن مصيرى ليس بيدى وليس أمامى إلا الاستسلام لقدرى. حاولت أن أتماسك، حتى احتفظ بمظهرى المتجلد وكبريائى.

سببت رجال الشرطة لأظهر عدم خوفى منهم وشجاعتى، كنت أرمقهم بغضب رغم تفهمى لموقفهم وموقف خالتى زهرة.

أخيرا تحطمت الحلقة الجهنمية التى أطبقت على عنقى منذ سنوات. خالتى زهرة، ببلاغها عنا أخرجتنى من الفخ الذى وقعت فيه، وخدمتنى خدمة العمر.

- ٢١ -

القبض علينا تم فى نهاية مارس ٩٦، العـملية تمت بمعاونة عدة قوى أمنية : الجيش، الشرطة ومجموعة من الدفاع الشرعى المكون من الشعـب حضروا حـوالى الساعـة السادسة صـباحـا فى عدة سيارات وحـاصروا المنزل. أحمد واصـدقاؤه كانوا تسعـة. فاطمة كانت نائمة هى وزوجها فى إحدى الحـجرات. كنت مستيقظة منذ فـترة، لأحـضر الإفطار كـالعادة وكـذلك أحـمد. مع طلقـات النار الأولى عرفنا أنه تم الابلاغ عنا. اخـتفى أحمد وأصدقـاؤه بسرعة البرق. كـان من السهل الهـرب بالقفـز من نافذة لأخـرى فالمنازل منخفضة. وكان الجيران يسمحون بذلك خوفا من أعضاء الجماعة ولقـد نسى أحمـد سلاحـه على طاولة حجـرة النوم أثناء هروبه، ناديت عليه ليأخذه، فى لحظة هروبه أوصانى بالاهتمام بالنقود.

وصيته صدمتنى، فلقد كنت فى موقف لا أحسد عليه أمام هذه الحشود وهو لا يهتم إلا بالنقود.

دخلت قـوات الجيش المنزل، كـانوا سـتـة أو سبـعة لا أتذكـر. الآخرون كـانوا يراقبـون بالخارج. ما إن شـاهدتهم فاطمـة حتى انهمـرت دموعـها، كانت قـلقة على ابنتهـا بصفـة اساسـية. تأثر الضابط بدموعها فتوجه بحديثه إلىّ، فلقد كنت أبدو أكثر تماسكا.

سألنى : «أين هم؟» أجبته : «عمن تتكلم؟ نحن وحدنا».

لم يقتنع الضابط بكلامي، لكنه فهم أنهم حضروا متأخرين في حين كانوا يتصورون أنهم سيقبضون على مجموعة حي بوناب بكاملها.

لا أدرى ماذا ألم بى، كان لدى رغبة فى السخرية من رجال الشرطة. كنت أريد أن ينتهى ذلك الكابوس لكن فى الوقت ذاته كنت أفضل ألا أسهل الأمر لرمز الطاغوت الذى يحاربه زوجي بضراوة وأنا كذلك. لم أكن متأكدة من سلامة موقفي، لكننى شعرت أن عليّ دورا يجب أن أؤد ليس من السهل الاعتراف بكل شيء فى الحال.

رجال الشرطة تجولوا فى مختلف الحجرات وألقوا نظرات فاحصة فى كل مكان. وعندما لم يجدوا ما يثير انتباههم خرجوا ولكنهم عادوا بعد دقائق، بصحبتهم رجل كان فى الخارج.

هذا الأخير كان بزى مدنى، ولقد وضع على وجهه قناعا لا يظهر منه إلا العينان كان جارا لنا وشى بنا. المعلومات المأخوذة من خالتى زهرة لم تكن كاملة بصورة كافية لأن رجال الشرطة طلبوا معونة هذا الرجل.

أشار الضابط إلينا وقال له : «هل تعرف هاتين المرأتين؟» أجاب الرجل المقنع بدون تردد : نعم.

صوته لم يكن غريبا على، لكن فى هذه اللحظة لم أكن قادرة على تحديد شخصيته. بعد ذلك تذكرت، كان شابا قد تعاون مع جيا منذ عدة شهور، لكنه غير المعسكر بعد مقتل أخيه على يد رفقاء سلاحه.

ولقد طلب من الشـرطة معاملتـه طبقا لقـانون الرحمة بصفـته تائبا. قامت قوات الأمن بالتفـتيش مرة أخرى، لكن هذه المرة بدقة. فى إحـدى خزائن الملابس وجـدوا شنطة قمـاش صغـيرة ممتلئـة بالنقـود بهـا ٦٠ ألف ديـنار. اخـذوها مع أشـيـاء أخـرى تخص الجماعة : سـواك، حناء، مسك، كانوا يشربونه قبل اشـتراكهم فى أى عملية حتى لا ينزفوا فى حالة جرحهم، نسخ من القرآن وكتب للدعوة الإسلامية.

كما وجـدوا أيضا ملابس اعضاء الجـماعة. فى ركن من الفناء، وجدوا كومة من الأطباق وأدوات الطعام المتسخة. رجحوا أنه، فى المساء، كان هناك عـدد من أعضاء الجماعة على العـشاء. كان ذلك صحيحا، فبعض الاخوة تناولوا طعامهم بالخارج.

سألنى الضابط عن مكانهم، رددت عليه بأنـنى لا أعرف شيئا. لم يكن لديهم شك فى أنه وكر لأعضاء جيا.

«اخرجى من هنا، يا ابنة العاهرة» سبنى أحـدهم، واقترب آخر وسألنى إن كنـت متزوجـة. وبدون إرادة كذبت مـرة أخرى. كنت مقتنعة أننى سأستـفيد لو أظهرت تعاونا، لكن ذلك لم يمنعنى من أن استمر فى لعبتى لتضليلهم.

كنت على ثقـة من أننى على وشك الوصول لخـتام فـصل من حياتى، هذا الذى عشته مع أحمد، وكنت أريد أن أطيله قليلا.

«الكذب لن يفـيدك، مـا هذا؟!» اشار الضـابط بسلاحـه لبطنى المنتفخ. كنت حينـذاك حاملا فى خمسة شـهور، بالرغم من ثوبى الفضـفاض فإن بطنى كان ملحـوظا. ادركت أن رواية اكاذيب عن حيـاتى الخاصة سـتكون ضربا من البلاهة والحـمق. لكن لم يكن

عندى رغبـة فى التنازل، كان عندى رغبـة فى إطالة هذه اللحظات لأطول ما يمكن.

جربت طريقة أخرى لخـداع هؤلاء الذين يمثلون الدولة الكافرة التى يجب أن نحـاربهـا، فـيجب أن أكـون مـصدر فـخـر لزوجى وأميرى. أخذت أصرخ فيهم بكل الشتائم التى أعرفها دون توقف.

هددنى أحدهم بالضرب وكاد أن يفعل لولا منع ضابط آخر له.

أمـرنى احـدهم برفع الخـمار ولكنى رفـضت وقلت بـثبـات : «لو كنت تظن أنك تتـحكم فى حـياتى فـما عليك إلا أن تقـتلنى أنا لا أخاف منكم ولا من أى مخلوق. لا أخاف إلا من الله وحده».

«انت منهم، اذن اعترفى» زعق فىّ الضـابط بكل قوته واستدار لفاطمة وقال : «تكلمى انت، هل خرست؟»

كانت تبكى بحرقة. طلب منا العـسكر أن نعطى وجهنا للحائط. بالغـريزة شعرت أنهـم لن يؤذونا. فى الحقـيقة لم أتصـور لحظة أنهم يمكن أن يقتلونا إلا عندما استدرت لفـاطمة ورأيتها قد رفعت السبـابة اليمنى، كـانت تتلو الشهـادة كما يفـعل الذين على وشك الموت.

فى هذه اللحظة، راودنى الشك ولمدة ثوان واجـهت احتـمال أن نقـتل أو نعذب. شـعرت أنه من الأفـضل التـوقف عن هذه اللعبـة الخاسرة. كل عضلاتى استرخت، واجـتاحنى حزن عميق وتعاسة لا حدود لها. وبدون ضجة أو افتعال بكيت فى صمت.

- ٢٢ -

تمنيت بالفعل أن أضع نهاية لكل ذلك، لكن فكرة أن أفقد زوجى أو أخونه كانت تفزغنى، فلقد كنت أحبه وأخافه.

بعد أن حاولت مقاومة الشرطة، انهارت شجاعتى. أخرجنى رجال الشرطة من المنزل وفاطمة معى. فى هذه اللحظة، كان بائع خبز متجول يمر أمام المنزل بسيارته. أوقفه رجال الشرطة ليأخذنا معه. صعدنا لسيارته ومعنا اثنان من رجال الشرطة.

الآخرون تبعونا بسيارتهم. اصطحبونا إلى درك الكاليتوس الذى يتبعه حى بوناب ظللنا طوال النهار دون أن نعرف ماذا سيحدث معنا.

ضابط برتبة قائد، جاء مساء من بليدا، ليستجوبنا فى قسم البوليس عدت لوعيى، فكرت فى أحمد وعائلتى ومخاطرة أن أزج بهم فى هذه المغامرة. حاولت أن اتحاشى ذلك بكل وسيلة وأى ثمن.

فكرت فى اننى لو قاومت، سيضيع ذلك وقت الشرطة مما يسمح لأحمد وأصدقائه بالهرب بعيدا، لذلك عدت إلى لعبتى من جديد.

لم أكن أريد أن أظهر لرجال الشرطة أى ضعف.

عندما بدأ القائد فى استجوابى، انكرت من جديد إلا شيئا واحدا : إن زوجى عضو فى جيا. بعد عدة ساعات من الاستجواب اعترفت بكل شىء، حتى ما لم أفعله، فلقد تعبت وأجبت بنعم على كل ما يطلبه ويطرحه. حاولت ألا أزج باسم أحد من الجيران رغم معاونتهم لجيا.

فاجأنى القائد بسؤاله : «هل قتلت؟» لم أكن أتوقع مثل هذا السؤال فهل كان يظن أن زوجات أعضاء جيا يقتلن أيضا؟ لاحظ دهشتى. فسألنى عن مدى علمى باستخدام الاسلحة، وأى نوع من السلاح كان أحمد وزملاؤه يستخدمونه.

كنت قد تعلمت كيف ازود المحشوشة بالذخيرة وكيف انزعها بدافع الفضول ليس أكثر. طلبنا القائد بالدور، فاطمة وأنا، فى مكتبه ليستجوبنا. كان أمينا معنا. بقية الوقت كنا نجلس فى نفس الحجرة، فكانت كل منا تشجع الأخرى. توقفت فاطمة أخيرا عن البكاء.

نقلونا فى ساعة متأخرة من الليل إلى قسم براقى. طلبوا منا أن ننزع مصاغنا والأحزمة إن وجدت. خلعوا عني الخمار وليس الملابس كما كان أعضاء الجماعة يشيعون. كانوا يتهمون رجال الشرطة بنزع ملابس نساء أعضاء الجماعة وتركهن عرايا.

وضعوا لفاطمة سريرا فى أحد المكاتب، بسبب ابنتها لم يودعوها فى زنزانة. وضعونى فى زنزانة ضيقة بالكاد تكفى لوضع مرتبة على الأرض. كانت بدون ضوء أو نافذة، مظلمة وقذرة. احضروا لى مرتبة غير مريحة ملوثة بدم مازال لزجا. خلعت الحجاب واستخدمته كملاءة ونمت عليه.

كانت المشاهد التى رأيتها منذ دقائق، عندما نزلت إلى الحمام، مازالت تتراءى أمام عينىّ. ففى إحدى الحجرات السفلية، رأيت رجالا عرايا وقد نزفت الدماء من أجسادهم من أثر التعذيب. سألت نفسى إن كنت أستطيع أن أتحمل ظروفا كهذه، كنت أرجو ألا أواجه هذا الموقف.

فى الحقيقة، كنت محظوظة فلم أعذب ولم أضرب. تركونى فى هذه الزنزانة ثلاث ليال بدون طعام.

قال لى أحد رجال الشرطة بعد ذلك أنهم نسونى، ولكنى أشك فى ذلك، لقد أرادوا عقابى لعنادى، فى حين أن فاطمة ببكائها المستمر كانت توحى أنها نادمة على أفعالها، كما أننى كنت زوجة الأمير فعقابى يجب أن يكون أشد منها.

عندما سألنى أحدهم إذا كنت مازلت أحب زوجى أجبته بحدة : «بالتأكيد هل تريدنى أن أحبك أنت؟».

فاطمة كانت تنام على سرير نظيف هى وابنتها وتأكل ثلاث وجبات، كانوا يحضرون لها لبن أطفال لابنتها، وصابونا ومناشف لتنظيف الطفلة وغسل غياراتها. كان رجال الشرطة يداعبون طفلتها.

المشكلة الوحيدة أن القسم لم يكن فيه ماء ساخن، فكانت الطفلة تشرب اللبن باردا فمرضت.

رئيس درك براقى كان لطيفا جدا. عندما وصلنا إلى الدرك سألنى عن اسم زوجى فأجبته، وهنا أطلق صيحة : «آه، شعبانى، هل تعرفين أن زوجك حضر إلى فى زيرالدا ليقتلنى؟» ثم اضاف بعد أن لاحظ بطنى «وها أنت ترين أننى وصلت الأربعين من

عمـرى ولم اتزوج بعد. لكن لن اؤذيك سـأتركـك ترعين طفلك فى هدوء».

نجح المأمور فى أن يكسب ثقـتنا، حتى أننى وفـاطمة حكينا له كل ما نعرفـه. فى اليوم التالى لاعتقالى، علمت بأن مـذبحة جرت ليلا فى بن رمضـان. سمعت ما يقال عنها عن طريق كوة الزنزانة.

كـان الحوار يأتى من مكتب رئـيس الدرك، كان هناك شـخص يقص عليه ما حدث باكـيا. ثمانية من عائلته قتلتـهم جيا وفصلت رؤوسـهم عن أجسـادهم، وجمـعت الرؤوس على عـربة من التى ينقل عليها مواد البناء، ووضعتها فى قلب القرية.

عندما سـمعت ذلك خـفت أن ينتقم منى رجال الـشرطة، بكيت بشدة. سـمعنى أحـد رجال الشـرطة فصـرخ وكأن به مـسا من الجنون : «اتبكين الآن؟ هل ترين ماذا فعلت جماعتك؟».

فى اليوم الثالث، نقلونا إلى محكمة بليدا استقبلنا وكيل النيابة، كان يمت بصلة قرابة لأبى من بعيد لكنهما كانا على اتصال.

كان يعرفنى جـيدا، فلقد قضيت طفولتى مع بناته فـى شيراجا عندما رآنى ضحك قائلا : «ألم تجدى زوجا غير هذا المتشرد؟» ثم طمأننى : «لا تخافى سأهتم بك».

ذهبنا بعد ذلك لقاضى التحقيق الذى استجوبنا بدوره. وبعد أن انتهى من نظر القضية اعادنا للحجز فى قسم الكاليتوس.

استدعى النقيب والدى، طلب منـه أن يصطحبنا وشدد عليه أن لا يتـركنا فى حى بوناب، بل يبـعـدنى وأن يأخـذ فـاطمـة لمنزل اسـرتهـا فى باب الزوار. وكـعقـوبة لنا وضـعت وفـاطمـة تحت المراقبة، وكان علينا أن نذهب لقسم الشرطة كل أربعاء.

كنت مندهشــة عندما أخلى رئيس الدرك سبـيلنا فى ثالث يوم، كانت ســذاجة منه. لم يكن يشك أننا سنلحـق بالجماعـة فى اليوم التالى.

ما إن خــرجنا من الحجـن، حتى اخبـرنى أبى أنه استـقبل فى مساء اليوم الســابق أربعين من أعضاء جيا. فلقـد عرفوا، بواسطة جواسيسهم، أن رجال الشرطة استدعوه وبسبب الاستدعاء جاءوا ليصحبونا معهم وأخذوا إخوتى كرهائن.

ترك لنا أبى الخـيار إمــا أن نرحل بعـيدا كـما أوصى المأمـور، وبذلك أعـرض إخـوتى للخطر، أو العـودة والانضــمــام لأزواجنا والجماعة ومخالفة أوامر رجال الشرطة.

قلت لأبى أننى سأنصاع لحكمه. فلم أكن اتجاسر على الحديث، فيكفى ما سببته له من مذلة وتـعاسة وفضلت الصمت ليشعر بأن لديه سلطة الاختيار.

بعـد تفكير وبلهـجة حــازمـة قال : «لا لن أصــحبكمـا للمنزل ستقـضيان الليلة بالخارج، هذا يعطيكما وقـتا لرؤية أوضح، وغدا تقرران أين تذهبان».

اصطحبنا أبى إلى الكاليـتوس عند سيدة غايـة فى الرقة، كانت تعيش مع ابنتها ولقد قبلت أن تستضيفنا هذه الليلة.

- ٢٣ -

في اليـوم التالى، حـضر أبى مبـكرا. كان يبـدو مرهقا وكـأنه لم يغمض عينيه طوال الليل. فى الطريق سألنى أبى من جديد عن قرارى. سـأكون المسـئولة عن الاخـتيار مـا دمت أنا زوجة أمـير الجماعة وإخوتى هم الذين كانوا فى خطر.

كانت التعاسة واليأس تبدو على وجه أبى. هو نفسه لم يكن قد اتخذ قرارا. فلم يكن قادرا على هذا الاختيار الصعب. كان عليه أن يختـار بين غضب رجـال الشرطة أو الجـماعة. لم يـتردد طويلا، فضل أن يواجه الأقل إرهابا وعنفا : رجال الشرطة.

فـاطمة كـانت تميل لرؤية زوجـهـا، بالنسـبة لى ترددى كـان قصيرا. لكى أنقذ حيـاة إخوتى كان لابد أن اذهب لأحمد. فكرة أن إخوتى اتخذوا كرهائن افزعتنى، كما أن رغبتى فى رؤية أحمد من جديد كانت فى خاطرى فى لحظة الاختيار.

تنفس أبى الصعـداء وقال : «رجال الشـرطة سيضـعوننى فى السـجن أو يضربوننى أمـا رجال الجـماعـة فسـيقـتلون أولادى وزوجتى أمام عينىّ».

كان رجـال الجماعة ينتظرونـنا فى منزل أبى. كان يوم نحس. ابلغتنى أمى بخـبرين سيئـين. الأول أن أحد جيراننا، وكنـت أحبه

كثيرا، قتل بسببنا. حدث ذلك فى اليوم الذى اخذنا فيه رجال الشرطة. بعد رحيلنا بدقائق، عاد بعض رجال الجماعة ووضعوا قنبلة فى إحدى حجرات المنزل، ظنا منهم بأن رجال الشرطة سيعودون مرة أخرى للتفتيش.

القدر اراد أن يكون حميد الاصهب هو الضحية. ذهب إلى منزل خالتي زهرة بحثا عن نقود قد نكون تركناها وراءنا. انفجرت القنبلة عندما فتح باب الحجرة. جمعت زوجته أشلاءه، ساعدها الجيران فلقد كانت قطع لحمه ممزقة ومتناثرة بشكل بشع. الخبر الثانى السيىء، أن المنزل دمر فى هذا الانفجار، وكل حاجياتى ومتعلقاتى التى كانت به ضاعت تحت الانقاض.

وجدت نفسى من جديد بدون سقف يؤوينى وهو حال زوجة حميد وأطفاله الذين يعيشون فى بؤس.

بعد ذلك بعدة أشهر، حين رأيت أحمد مرة أخرى، اقسم لى أنه لم يضع القنبلة، بل زرعها رجال الشرطة وكان المقصود بها أعضاء الجماعة، ولقد صدقته كالعادة لكن زوجة حميد أكدت أنه هو وأصدقاءه الذين وضعوا القنبلة، فلقد كانوا آخر من مر أمام المنزل، ولم يعد رجال الشرطة بعد رحيلنا، اقسمت على ذلك وأكد لى آخرون روايتها.

خرجت أنا وفاطمة كالملكات بصحبة رجال الجماعة. جاء الجيران ليزورونى ويهنئونى بعودتى السريعة. سألنى أحمد هل اغتصبنى رجال الشرطة؟ نفيت ولكنه ظل يلح واستخدم كل الحيل الماكرة ليجعلنى اعترف، ثم وعدنى بأن يسامحنى لأننى كنت مكرهة وتحت تهديد السلاح. كان مقتنعا بأن ذلك ما يحدث.

غضبت وثرت لعدم ثقته فى، بدا فى النهاية مقتنعا بكلامى. توقف عن استجوابى، وطلب منى أن أرحل معه. رفضت أن اتبعه. تلقى رفضى بضيق شديد فلقد كان ينتظرنى منذ عدة أيام، كما أنه لا يقبل أن يخالف أحد رأيه. تفسيره لسلوكى اننى فتنت برجال الطاغوت واننى لم أعد أحبه. اخرجته ظنونه عن طوره، اشهر فى وجهى سلاحه قائلا : «لو كان ذلك حقيقيا سأقتلك على الفور».

ارتجفت خوفا، تطلب منى الأمر كثيرا من الجهد ليفهم أننى لا يمكننى أن أتجاهل التهديد والخطر الواقع على أبى واخوتى. هدأ واقنعنى أن حياة أبى وإخوتى فى أمان وأن الجماعة ستحميهم.

تركنا منزل والدى فى منتصف الليل، لنذهب لأم مريم فى حوش دوبوتيه هذه المرأة كانت أما لخمس فتيات بالغات وثلاثة صبية وكانت وثيقة الصلة بجيا. كانت تساعدهم وتدعمهم ضد رغبة زوجها، الذى لا يتجاسر على الاعتراض.

اطلق عليها أعضاء الجماعة اسم الفاحلة (لقب يطلق على المرأة الشجاعة فى الجزائر) ولقد كانت طاهية ماهرة.

اتذكر الوجبة الشهية التى قدمتها لنا يوم وصولنا عندها، كانت أرنبا مشويا. كان لديها حديقة تزرع فيها الخضراوات. بناتها كن متخصصات فى صنع الفطائر والحلوى. زوج الفاحلة كان فلاحا فى إحدى المزارع المجاورة كانوا يعيشون فى بحبوحة.

عندما وصلنا عند الفاحلة، وجدت فاطمة تتحدث إليها فى هدوء وقد انتهت من تحضير العشاء للجميع كان منزلها السابق بدون مخبأ، لذلك انتقلت إلى آخر، به دور سفلى غير ظاهر، كانت تخفى فيه أعضاء جيا الهاربين من الشرطة.

ولقد حكت لى ابنتها أنه فى يوم، كـانت طائرة هليكوبتر تابعة للجيش تطارد اثنين من أعضاء الجمـاعة. اصيب احدهما على بعد امتار من المنزل. وقـفز الآخر من على السور وسـقط فى منتصف الفناء اخفـته ابنة الفـاحلة فى الدور المسحـور. كان مصـابا ولقد اعطته قطعة قماش وزيت زيتون ليعـتنى بجرحه. كان جميلا. بعد ذلك ذهبت الهليكوبتر وكان ذلك دعوة له للخروج.

لحظات قصيرة جمعت بينهما، لكنها كانت كافية ليخفق قلباهما بالحب. بعد ذلك بعـدة أيام، جاء مع اصدقائه ليطلبـوا يدها. لكنها كـانت مـخطوبة وعلى وشك الزواج. كـانت مـا تزال تفكر فـيـه، وتتـحدث عنه بإعـجاب ولكنهـا كانت تعـرف تماما مـا تريد، رغم تقديمها المسـاعدة لأعضاء الجماعة لم تكـن لتقبل الزواج بأحدهم لتواصل حياة تعسة كحياتى، كانت تجربتى درسا لها.

هذا الشـاب اسـتـمـر يأتى لزيارتهم من وقت لآخـر وأصـبح صديقا للعائلة. منذ اليوم الأول، قلت لزوجى أننى لا أريد أن ابقى عند الفاحلة، فـالمنزل صغـير بالنسبـة لنا. فعائلتـها عشـرة أفراد بالاضـافة لفاطمة وابنتها وزوجـها وأنا وأحمد، بالاضافة لأعضاء الجماعة الذين يأتون ليأكلوا عندها بصفة منتظمة.

بالنسبـة له، كان يريد أن يتـركنى فى مكان يرتاح فيـه. عندما عاد، فى اليـوم التالى، عـرضت عليه المشكلة. قـال لى : «لا أعرف اين يمكنك الذهاب؟ المكـان الوحيـد لدى عائلـة غالى فى بيـرتوتا» وافقت بفـرحة على اقـتراحه فلقـد شعرت بالراحـة فى هذا المنزل الفسيح الأنيق، وكان أملى أن ابقى فيه أطول فترة ممكنة.

ذهبت إلى بيرتوتا بصحبة الفاحلة وزوجها. المفاجأة ان السيدة

غـالى طردتنى من علـى البـاب وكـأننى مـوبوءة وكـذلك ابناؤها وبناتها. وقالوا لى : «لا يمكن أن نؤويك مرة ثانية».

كان منزلهم مختلفا عن المرة السابقة. حوائطه الخارجية مثقوبة بفعل الطلقات النارية. فلقـد جرت معركة بين الشرطة ومـجموعة من جـيا كانـت فى منزلها. ولقـد قبـضت الشرطة على أحـد ابناء غـالى، الذى كـان همزة الوصـل بين أعضـاء الجـمـاعة، والآخـر لم يجـدوه، ولم يعرف والداه أين هو. وجـدت نفسى على قـارعة الطريق. الشىء المـذهل، أن الفـاحلة وزوجـها رفـضـا أن أعـود معهما.

لم يكن هناك تفـسـير لموقـفـهمـا، ولم أكن فى وضـع يسـمح بالتفاوض. على بعد أمتار، كان هناك كمين للعسكر. هددت الفاحلة وزوجها أن أبلغ عنهمـا إذا لم يتراجعا عن سلوكهمـا غير المتوقع، استسلما للأمر وعدت معهما.

فى المساء طلبت من أحمد أن يجد لى حـلا نهائيا. كان مرتبكا، فلم يكن لديه شىء يقـترحه، طلب منى البـقاء ليلة أخـرى وبعدها يتصرف.

فى مساء اليوم التالى، أبلغنى أنه وجد حلا للمشكلة. طلب منى أن أحضر اشيائى للرحـيل. تبعته دون أن أدرى إلى أين سنذهب، كنت سعيدة بفكرة ايجاد سقف دائم يؤوينى. كان المطر غزيرا فى ذلك المسـاء فى هذه المناطق المنعـزلة، لا يوجد إنارة بالكهـرباء أو القار.

سرنا فى الوحل، حـتى لا نثير الانتـباه، مشينا وسط الحـقول واخترقنـا طرقا غير مأهولة. بـدأت اطرافى تتجمد من البـرد، كما

آلمنى كـاحلى بشــدة. شــعــرت إننــى على وشك الاجـهـاض. لكى يسـاعدنى أحمد كان يمـسك بيدى، لكن ذلك لم يكن كافيا. كان ألم قدمى شــديدا، والجو باردا وأجـد صعـوبة فى السيـر فى الوحل والظلام الحالك. أدرك أحمد أنه لا يمكننا المواصلة على هذا النحو. حملنى على كـتفه وسار كـالأعمى. بعد ربع ساعـة، وضعنى على الأرض ليلتقط أنفاسه. لسوء حظى، وبسبب الظلمة، جاء موضعى فى حفرة مليئة بالماء والطين. خرجت منها وأنا ارتعش، وملابسى ثقلت بسبب الطين الذى علق بها.

كـان علينا أن نسـتكمل طريقنا الذى بدا بلا نهـاية. انتـهى بنا المطاف إلى منزل جوهر، إحدى قريبات أحمد التى كانت تعيش مع والدتهـا. بكت المرأتان عندما شـاهدتانى فى هذه الحال. أعطتـانى ملابس نظيفة جافة واشعلتا النار لتدفئتى. حضرت جوهر الطعام لأعضــاء الجماعـة كلهم، الذين جاءوا ليـأكلوا ويقضـوا جزءا من الأمسية ويرحلوا.

عندما خرج أحمد واصدقـاؤه من عند جوهر، سقطوا فى كمين شرطة. تبـادلوا اطلاق النار مع رجال الشـرطة، اصيب أحـمد فى ذراعه اليمنى. كان أحمد يتوقع أن يعود غدا، ولكنى لم أره إلا بعد سبعة شهور.

- ٢٤ -

فى اليـوم التالى، حـمل لى محـمد واثنان من اصـدقاء أحـمد رسالة منه وأخبرونى أنه جرح وأنه سيتغيب لمدة شهر. لم أصدق روايتهم واعـتقدت أن أحـمد قتل. فـهم محـمد مخـاوفى، طمأننى قـائلا : «سأعطيك دليـلا على أنه حى لقـد طلب منى أن اصحـبك لوالديك لو رغبت».

لم أكن استطيع أن أبقى عنـد جوهر وأمها، فـهما تعيـشان فى مزرعـة قديمة باردة، محـرومة من وسائل الراحة ضـائعة وسط الريف، ليس بها وسـيلة اتصال. كما أن بقائى عـند جوهر، سبب لها مضايقات. زوجهـا ترك المنزل عندما تأكد من أننى سأظل عدة أيام. كان يعرف أننى زوجـة عضو فى الجماعـة المسلحة ولم يكن يريد أن يتورط معهم.

جوهر، أيضا، كانت قلقة لكنـها لم تظهر ذلك ولقد أوصتنى إن حضر أحد أن اختفى تحت السرير. ولقد أيدت اختيارى للرحيل.

اصطحبنى محمد إلى والداى. عنـدما رأتنى أمى، أطلقت صيحة دهشة، فلقد اعتقـدت أننى مت، يوم خرجت فى منتصف الليل مع أحمد.

سمعت صراخنا ونحن نتشاجر، بعدها خرجنا، ولم تعد تسمع

سوى تكبير الاخوة، كانـوا يرددون : «الله اكبر، والحمد لله». كانت هذه طريقتهم فى التعبيـر عن الفرح والانتصار على الأعداء. ولقد اعتبروا اخلاء سبيلى أنا وفاطمة انتصارا.

كـانت أمى تظن أن زوجى قـتلنى على أثر شـجـارنا، وأن هذا التكبير خاص للموتى. عندمـا رأتنى أمى لأول وهلة ظنتنى شبحا. احتاج ذلك إلى وقت لأشـرح وأفسر ما حدث، لتتـأكد أننى مازلت على قيد الحياة. لحسن حظى، كـان أبى فى عمله، كنت متأكدة أنه سيـرفض استقبـالى لو كان موجودا. اشـترطت أمى علىّ الذهاب للشرطة للبقاء معها. ساعـدتنى على أن أجد عذرا أقدمه عن تغيبى عن موعدى فى الأسبوع الماضى.

قلت لهم إننى كنت عند عمـتى فى شيراجا، وعنـدما عدت يوم الأربعاء لأسجل حضورى كانت المـنطقة مغلقة، بسبب القنبلة التى انفجرت فى حميد الاصهب وأصبح دخول الكاليتوس مستحيلا.

بقـيت يومين عند أمى، رغـم رعب أبى الذى كان مـتذمـرا من وجودى. وجدت أنه مـن الأفضل أن اترك حى بوناب. كنت منهكة القوى وعندى مـشاكل فى الحـمل فلقد عشت رعـبا حـقيقـيا فى الفترة الماضية.

كنت بحاجـة للراحة والهدوء والعناية، نصـحتنى أمى بالذهاب لعمـتى الكبرى فى شيراجـا. كانت دائما تحـبنى وتعتنى بى، وهو ما فعلته. عندما ذهبت لأسجل حضورى فى الدرك . بعد ذلك عرفت أن الشرطة قبضت على أبى بسبب فاطمة. فلكى تبرىء نفسـها قالت لهم إنه هو الذى قادنا لأعضاء الجماعة دون أن يستشيرنا.

كنت فى القسم، عندما جاءت أمى لتبحث عن زوجها. لم أشاهد

في حياتي رئيس درك الكاليتوس غاضبا بهذا الشكل. عندما دخلت مكتبه لأسجل حضورى نظر لى نظرة حادة وأطلق لغضبه العنان. سبنى بكل أنواع الشتائم، هو الذى لم ينطق من قبل كلمة نابية. صرخ فى وجهى قائلا : «لقد خنت ثقتى، وسأجعلك تدفعين ثمن ذلك. أنت لست سوى متشردة لا تجدين متعتك إلا مع هؤلاء الدمويين. لقد جعلتنى اندم على معاملتك بالحسنى، لكن الوقت لم يفت بعد. يمكننى أن اسجنك لو أردت، هل تعرفين ذلك؟».

ما أعرفه، أن قليلين من أمثالى هم الذين حصلوا على هذه المعاملة المميزة والتى لم أكن انتظرها. وكنت أعرف أيضا أن الأمور يمكن أن يتغير مسارها. جلست على المقعد وعينى فى الأرض لا أرفعها، وتركته ينفث غضبه. أخيرا هدأ، كان يعتبرنى ضحية يجب أن يساعدها. «سأعطيك فرصة أخيرة، لو قلت الحقيقة كاملة، سأساعدك على الخروج من حياة الكلاب التى تعيشينها.».

قصصت عليه كل شىء، حتى التفاصيل الصغيرة منذ لحظة خروجنا من مكتبه أنا وفاطمة وأبى وحتى اليوم. شرحت له موقف أبى، الذى لم يكن أمامه إلا الإذعان أمام تهديد الجماعة لحياة أولاده وزوجته.

أخلى سبيل أبى بعد يومين من الايقاف، لم يعامل معاملة سيئة ولقد اندهش لذلك. استجوبته الشرطة فقط، فلقد كانوا يظنون ان له اتصالا بأحمد شعبانى وجماعته، لكنهم تأكدوا أنه لا يعرف شيئا. وأنه لم يكن يوما على صلة بهم، وكان ينصرف عندما يتحدث أحد الجيران عن الجماعة خوفا من التورط.

تم إخلاء سـبيل فاطمـة أيضا فى ذلك اليـوم. هذه المرة حرص المأمور على إخطار أهلهـا الذين جاءوا يبحثون عنهـا واصطحبوها معهم. كان المفروض أن تذهب كل أربعاء لقسم الكاليتوس لتسجل حضورها مثلى.

أبلغت المأمـور أننى سـأترك حى بوناب وسأذهـب لعمـتى فى شيراجا.

فى شـيراجـا كان لدى عـمان وعـمـتان يعـيشـون فى منازل مشتركة. اصغر عمـاتى كانت مطلقة من خمس عشرة سنة ولديها ابن فى السـادسة عـشـرة، لم يكن يعرف أبـاه. كانت مـجروحـة بسبب طلاقها. فالمرأة المطلقة عندنا تقل قيمتها.

كانت مقـتنعة، إننى لو بقيت فى شيراجـا، سأتسبب فى طلاق عمتى الأخـرى، التى اخذت على عاتقهـا أن تستضيـفنى. مخاوف عمتى الصغرى تحقـقت. فزوج عمتى التى كنت أعيش عندها، كان كارها لوجودى عندهمـا خوفا من التورط مع أعضاء الجـماعة أو الشـرطة. ولتجـبرنى عـمتى المطلقـة على الرحيل جـعلت حيـاتى جحيما لا يطاق.

بعد ظهـر أحد الأيام، جـاءت أمى لتزورنى وتصحـبنى للبلدية لأستخرج بطاقة شخصية. اخـبرتها برغبتى فى العودة معها لحى بوناب. سـألتنى «عند مـن؟» كانـت تعرف أن أبـى لن يوافق على وجودى عندهم. فـأجبتهـا «عند على» كان على يعيش فى حـجرة صغيرة مجاورة لـلدرك ليكون تحت حماية رجال الشرطة منذ أن ابلغ عن أحمد واصدقائه.

قـضيت مـعـه ليلتين، كـنا اثنى عشـر فـردا فى هذه الحجـرة

الصغيرة المخرومة السقف. كان المطر يسقط علينا، ولم يكن هناك أغطية تكفى هذا العدد الكبير. استقبلونى بحذر ولكنى طمأنتهم : «يمكنكم أن تكونوا على راحتكم، أنا أيضا متعاونة مع الشرطة، ولقد تحررت من هذه الحياة.».

بعد اسبوع، سمح لى القاضى بالعودة للحياة فى منزلى، كان ذلك ممنوعا حتى حينه. فى المقابل وعدت الشرطة بمساعدتهم فى القبض على أحمد لو جاء عندى، كنت مستعدة لأن أفعل أى شىء لأعود لمنزلى، حتى لا أكون مضطرة للانتقال من مسكن لآخر. كان حلما جميلا، لكن التعاسة لا ترغب فى فراقى. فما إن تهيأت للعودة للمنزل، حتى ابلغ «على» الشرطة عن وجود مخبأ فى منزلى. فى هذا اليوم، واجهت غضب المأمور مرة أخرى لأننى لم أخبره بوجود هذا المخبأ. حاولت اقناعه اننى اجهل كل شىء عن ذلك المخبأ، وأن زوجى حفره فى غيابى، اعتقدت أن المشكلة حلت وأنه صدقنى. لكن منزلى تم تشميعه. وجدت نفسى من جديد أمام السؤال الذى يلاحقنى : «إلى أين أذهب؟» لم أكن استطيع البقاء فى ضيافة على، قررت أن أعود لعمتى فى شيراجا. كنت فى حاجة لمكان ثابت وعناية قصوى. كنت أشعر بالوهن واواجه خطر الاجهاض. رغم الحياة القاسية التى أعيشها لم أتمن ابدا أن أفقد طفلى. كان الشىء الوحيد الذى ينتمى إلىّ ويخصنى.

وكما توقعت، فلقد شملتنى عمتى برعايتها، وبعد عدة أيام ابتعد عنى شبح الاجهاض.

لكنى بقيت ضعيفة. لسوء الحظ، بعد اسبوعين عادت أختها المطلقة، وطلبت منى أن اترك المنزل بأقصى سرعة ممكنة.

تحدثت مع أمي، التي فكرت في الاشخاص الذين يمكن أن يستقبلوني كانوا قلائل. تذكرت أخوالها الذين يعيشون في سامار. لم تكن تراهم إلا في مناسبات نادرة ولقد وافقوا، بدافع الخوف، أن يستقبلوني لعدة أيام. بقيت عندهم ثمانية أيام. في منتصف الأسبوع، ذهبت لأسجل حضوري في قسم الشرطة. كانت اللحظات الوحيدة التي استطيع فيها الخروج بمفردي.

عدت عن طريق بيرتوتا، مررت على أسرة غالي لعلي أعرف أخبارا عن زوجي. مرت ثلاثة شهور على آخر مرة رأيته فيها. لم يعطني الاخوة الشهرية التي كنت أتلقاها من قبل وكانت تبلغ ٣ آلاف دينار. لم أكن أملك مليما لأشترى الدواء. محمد كان يأتي من وقت لآخر لحي بوناب، ليعرف أخبار فاطمة زوجته، لم يفكر ابدا أن يعطيني مليما، لكن حين كنت طباخة الجماعة كان راتبي يصلني بصفة منتظمة. كان أحمد يقول لي إنه لو مات ستظل هذه الشهرية تصلني بصفة مستمرة لي ولابني، لكن ذلك لم يكن حقيقيا.

عائلة غالي طمأنتني على زوجي، قالوا لي إنه أصيب فقط وإنه يلاقي العناية في «جواب» بالقرب من «مدية». اسعدني خبر أنه مازال على قيد الحياة.

- ٢٥ -

صدمت بحياة أقارب أمى، كانوا يعيشون فى منطقة نائية ليس بها صـرف صـحى. كنت أقـضـى طوال اليوم فى السـرير، لم يكن أحد يأتى للسؤال عنى .

كنت أشعـر أن صحتى تسوء يومـا بعد يوم، ولم أكن أثق فى إمكانية إيجاد العناية والرعاية فى منزلهم .

فى مسـاء أحد الأيام ، وعند عودة أحـد أقارب أمى، طلبت منه أن يعيدنى لعمـتى فى شيراجا فعل ذلك بدون مناقـشة، فلقد كان سعيدا بتخلصه منى .

اعتنت بى عمتى حتى شفائى التام .

الأربعاء وأمام رئيـس درك الكاليتوس، عبرت لـه عن إحباطى: «لا أستطيع أن استمر هكذا، لا أحد يريد أن يستقبلنى وأنا مريضة وبحاجة لمكان ثابت. أريد أن أعود لمنزلى» .

سمح لـى بالعودة لحى بوناب، وليس منزلى الذى وضع عـليه الختم الأحمر .

ذهبت عند أمى وجلست شـهرا رغم احـتجاج أبى. اهـتمت بى أمى أثناء فترة نقاهتى.

كنا فى يونيـو، ومـوعد ولادتى أغـسطس. كـان الحل الأكثـر حكمـة، أن أنهى فتـرة حـملى عند جـدتى فى زيرالدا، على أن تتم الولادة هناك.

كان أفـضل مكان أضع فيـه طفلى. لم أكن معـروفة من الناس أو رجال الشـرطة أو البلدية . كان ذلك يتيح لى تسـجيل ابنى فى سجلات الحالة المدنية.. ففى الكاليتوس، كان من الممكن أن يرفض موظفـو البلدية تسجيله كـما رفضوا من قـبل استخـراج بطاقتى الشخصية. ولقد رد موظف الشـباك على طلبى قائلا: «سنستخرج لك بطاقـة فى اليوم الذى يتوقـف فيه زوجك عن حـرق مكاتبنا». أعطونى وثيقة للمرور، وبعد ذلك سـاعدنى مأمور الكاليتوس على استخراج البطاقة الشخصية.

ولدت فى أغسطـس بمستشـفى زيرالدا. كان تعليق أصـدقائى الذين جاءوا لزيارتى عجيبـا : «كنا نظن أنك ستلدين وحشا وليس كائنا إنسانيا». وآخـرون أظهروا دهشتهم لبقائى على قـيد الحياة بعد كل مـا عانيته. وأمـى كانت تعتقـد أننى لن استمـر فى حملى أو سألد طفلا غير طبيعى.

عانيت نفـسيا فى الفـترة التى تلت ولادتى، لم أشعـر من قبل بمثل هذه الوحـدة والتعاسـة. فى اليوم الأول، كنت أتمـنى أن أجد من يهـتم بـى ويسـأل عنى للأسف لم يكن هـناك سـوى جـدتى العجوز. هذا الطفل الذى تمنيته طويلا، لم أعد راغبة فيه، بل منعت عنه ثديـى، رغم أنه كـان يـؤلمنى بسـبـب تدفق اللبن به. جـدتى أعادتنى إلى صوابى بكلماتها: «انه طفلك، ليس له أحد سواك وهو بحاجـة إليك. وليس من المعقول أن تحـمليه تسعـة أشهر لتقـتليه جوعا الآن؟

لم تبخل علىّ الطبيبة التى ولدتنى برعـايتها هى والممرضات . فلقد شـعرن أننى حـالة خاصـة، ولاحظن أن هناك شيـئا غـريبا بالنسبة لى. ظنن أننى أم بدون زواج ، وتـعاملن معى برفق ولين. وليخففن علىّ وحدتى أحضرن هدايا للطفل.

لم تحضر أمي إلا بعد الولادة بثلاثة أيام ، لتخرجني من المستشفى . قضينا الليلة عند جدتي. في اليوم التالي، عدنا إلى حي بوناب .

لم يكن مع أمي ما ندفعه لسيارة أجرة، فلقد رفض أبي أن يعطيها نقودا لتنفقها على احتياجات ابن ارهابي!! ركبنا شاحنة للتوفير.

كنت أحمل طفلي بين ذراعي حين استقبلني أبي على عتبة المنزل وطلب مني أن أذهب بعيدا أنا وطفلي. سد الباب بجسمه حتى لا أدخل.

لم أكن في حالة تسمح لي بالرد عليه أو الاستمرار واقفة. جلست على إحدى درجات السلم. منعته أمي من طردي وأنا في هذه الحالة.

لكنه أخبرها أنه لن ينفق مليما على الاحتفال بميلاد الطفل.

الجيران اهتموا بي. أول جارة زارتني كانت صديقتي، حينما شاهدت الطفل قالت: «أتمنى ألا يصبح سفاحا مثل أبيه». ولقد اغتالها أحمد بعد ذلك بشهر وكأنها كانت تتنبأ بما سيحدث. كل الجيران قالوا نفس الشيء.

استسلم أبي لتوسل أمي بأن يتركني أعيش معهم شهرا آخر. حتى اليوم الذي عاد فيه أحمد للكفر

قبل ذلك بيوم، وصل رجال الشرطة عندنا، وصلتهم معلومات عن حضوره.

قضوا الليل عندنا وأكلوا عشاءنا، وصلوا في حوالي العاشرة مساء. كانوا كثيرين ولقد دفعوا الباب بقوة مما أفزع أسرتي.

بعد حضورهم بدقائق، أخذوا أبي للفناء وسمعنا صوت أعيرة نارية.

اعتقـدنا أنهم قتلوا أبى. بكينا جمـيعا وصرخ إخوتـى الصغار ولطمت أمى خدودها.

لكن الحقـيقة، أن رجـال الشرطة أطلقوا الرصـاص فى الهواء، ربما ليعلنوا عن قوتهم، لكن بعد أن شـعروا بتسرعهم، أدخلوا أبى إلى المنزل لنتأكد أنه على قيد الحياة.

أدرك رجال الشـرطة أنهم بهذه الجلـبة التى أحدثوهـا، لم يعد لديهم فرصة فى القبض على الجماعة. اثنان منهم بقيا فى الحجرة من خلال النافذة والآخرون فى الخارج.

طلبوا منا أن نفتح التليفزيون والتصرف وكأن شيئا لم يحدث، حتى لا نثير ريبة أعضاء الجماعة فى حالة حضورهم.

لم يغـمـض لأحـد منا جـفن فـى هذه الليلة. كنا خـائفين من الجانبين. أخواتى الصغـيرات يبكين بدون توقف وإخوتى رمقونى بنظرات غاضبة لائمة.

وأنا كنت أدعو ألا يأتى أحـمد. كنت أخاف على حيـاته، وحياة عائلتى وحياتى.

لا أحـد يمكن أن يتصـور حمـام الدم الذى سـيراق لو التـقى الجمعان وجها لوجه: الشرطة وأعضاء الجماعة ونحن بينهما.

فى الصـباح، رحل رجـال الشرطة، كـانت المرة الوحيـدة التى قضوا فيـها الليل عندنا. مرة أخرى، هاجمـوا المنزل فى الفجر ظنا منهم، أنهم سيجدون صيدهم عندنا. كانت معلوماتهم خاطئة.

كان رجـال الجماعـة والشرطة يلعبـان معا. وكـانا يصطدمان أحـيانا. كـان لكل منهم جـواسـيسـه، وأحيـانا كـان بعض هؤلاء يتجسس لصالح المعسكرين.

- ٢٦ -

عاد أحمد بعد غياب سبعة شهور. فى البلد تسممت الأشياء، وجيا أصبحت أكثر دموية، المذابح التى كانت تقوم بها تركت الناس فى ذهول لم يكن أحد يفهم لماذا كل هذا العنف؟! لماذا كل هذه الفظاعة؟!

حضور أحمد فى منتصف الليل، لم يكن يمثل لنا شيئا جيدا. كان معه ثلاثة من الجماعة.

واحد دخل معه والآخران ظلا بالخارج للمراقبة.

عانق جميع أفراد العائلة عداى. فلا يجوز أن يقبل زوج زوجته أمام والديها.

تغير كثيرا لدرجة أننى خلطت بينه وبين شخص آخر. وصلت لحيته لصدره كانت أول مرة أراه ملتحيا، فلقد كان يتفادى ذلك فيما مضى حتى شاربه كان رفيعا.

كان يرتدى شاشا أسود وزيا أفغانيا قذرا كالح اللون. لم ألاحظ فى البداية أن ذراعه مصابة. عندما خلع سترته، لاحظت أنه يحمل حزام ذخيرة من الجلد، وذراعه ملفوفة فى ضمادة. كان يحركها ببطء، ولم يكن يستخدمها بشكل طبيعى. كان هناك جو ثقيل هبط على المكان.

كنا فى انتظار أن يعلن عن شىء هام، فلا يمكن أن يأتى من أجل لا شىء.

ولأول مرة، يظهر أبى شجاعة أمامه. فلقد عاتبه على غيابه سبعة شهور بدون أن تصلنى منه أخبار. وحكى له أننى كنت مريضة جدا فى فترة الحمل وأننى بمعجزة ولدت بدون مشاكل كبيرة. لم يرد أحمد.

انسحبنا، أنا وهو إلى إحدى الحجرات حيث أبلغنى بلهجة مؤثرة أنه افتقدنى ولم ينسنى لحظة، وأنه أرسل لى خطابا مع خاله يخبرنى فيه عن سوء حالته الصحية وأنه سيعود حالما يستطيع ذلك. لكن خاله لم يسلمنى هذه الرسالة. فلقد كان يعرف أنى أذهب بصفة منتظمة لأسجل حضورى فى قسم البوليس، وبالتأكيد خاف أن أخبرهم عن هذه الرسالة، فيأتوا لاستجوابه لمعرفة أين قابل ابن أخته.

أخبرته أننى لم أتلق مليما من الجماعة طوال غيابه. ارتبك وأعطانى ٥ آلاف دينار للصغير اعتذر عن عدم إمكانية إعطائى أكثر لأن الناس لم تعد تدعمهم.

عمليات الابتزاز لم تعد تسير على ما يرام، والممولون الكرماء المقتنعون بالجماعة أصبحوا ندرة.

حكيت له عن جحود أصدقائه الذين لم يسألوا عنى فى حين كانوا يأتون كل يوم للأكل عندنا وبسببهم فقدت صحتى. كما لم يأتوا لزيارتى بعد الولادة للاطمئنان على صحة المولود. أحمد لم يكن يوافقنى على لومى لأصدقائه. ووجد لهم عذرا فى أنهم الآن أقل حرية فى حركتهم، فهم مطاردون من رجال الأمن والشرطة.

وتمويل الجماعة يتناقص يوما بعد يوم، حتى إنهم يعانون فى الانفاق على أنفسهم وأصبحوا يأكلون كل يوم الروينا (دقيق قمح معجون بالماء) كان تعيسا وهو يتحدث عن وضع أصدقائه.

عندما أدركت كم يعانى، تمنيت له الموت حتى يجد السكينة. فمنذ طفولته المبكرة لم يذق طعم السعادة. نظرت إليه طويلا.. كنت أريد الاقتران برجل قادر على منحى السلام والحماية اللذين ابحث عنهما، لكننى لم أشعر بذلك أبدا معه. كان ما بيننا شجارا ودموعا.

حسدت النساء اللواتى يعشن فى منازلهن بدون مشاكل. عندما شاهدته على هذه الحال من القذارة والتمزق تألمت له. توسلت إليه أن يسلم نفسه للسلطات ولكنه رفض وقال: «لن أسلم نفسى إلا لله».

فهمت أنه لا يبحث عن العفو الإنسانى بل الموت، وكان يعرف أن الطريق الذى اختاره سيقوده إليه.

ولقد اعترف نادما بأنه كان يجب أن يعيش حياة هادئة مع زوجته وابنه لكن فات أوان ذلك. كان حزينا لأنه لم يعد سيد الكفر كما كان، بدون نقود أو دعم من الناس. لم يكن يدرى أين يذهب بى. كان مجبرا على أن يتركنى لقدرى. كان ذلك يمثل له قمة الذل والمهانة.

وفى محاولة يائسة لمواجهة موقفه الضعيف، استمر فى تشدده وعنفه.

ألقى بالطعام الذى قدمته أمى، فلم يعجبه يخنى القرع مع البطاطس.

ذكرته أن أبى رفت من عمله بسببـه، وأننا سعداء بهذه الوجبة اليوم، فهناك أيام لا نجد فيها سوى الخبز والماء.

ذهب للمطبخ ليـعـد لنفسـه قـهوة، رفض أن يأكل أو يشـرب ما قدمناه له فى الحـقيقة كان يشك فـينا. كان يخاف أن نضع له منوما فى الطعام أو الشراب ونذهب لإحضار الشرطة.

حدست أفكاره وقلت له وأنـا أبكى: «لقد عدت لتـجعلنى أبكى» فأجاب:

«أنت دائما تستـقبليننى بالدموع». لم يعد هناك ثقـة بيننا. لقد تغير تماما وأنا كذلك.

عندمـا تقاسمنا الـفراش، حاول أن يقـترب منى لكنى ابـعدته. كنت أخشى من حمل جـديد. أخذ يعنفنى بصوت جهورى سـمعه كل من فى المنزل: «لـقـد أصـبح لك رجل آخـر أكـيـد من رجـال الشرطة، لقد تغيرت تماما منذ بدأت تترددين عليهم».

احتجت لمجـهود كبيـر لأقنعه بأن هواجسى كانت بعـيدة تماما عما يفـكر فيه. أخيرا هـدأ وقال لى: «أنا أريد عشرة أو أحـد عشر طفلا، ليصبحوا جميعا أعـضاء فى الجماعة مثلى» كان رده غريبا. فى هذه اللحظة، استيقظ ابننا باكيا.

استـدرت إليه وأعطيتـه ثديى. استنكر أحـمد موقـفى وعاتبنى بشدة على أننى أعطيته ظهرى وأهملته لأرعى طفلى ولامنى لأننى لم أتركه مع أمى هذه الليلة. تعجبت من مـوقفه، هو الذى كان منذ لحظات يريد انجاب دسـتة أطفال، لا يحتـمل واحدا. كنت أظن أنه سيتـأثر برؤية ابنه. حين وضعتـه بين يديه بكى تأثرا، وأنا أيضا لكن لسبب آخر، فلقد رأيت قملا يـسقط من لحية أحمد فى اللحظة التى مال فيها ليقبل ابنه.

ولقد شعرت أنه تغير، من قبل، كان يقبل علىّ برغبة كبيرة عندما يغيب عنى يومين أو ثلاثة فقط. هذه المرة كان أقل شوقا.

لابد أنه تزوج فى الجبال، أو أنه كان له علاقات جنسية مع نساء أخريات من اللواتى يأخذونهن كرهائن. ولقد أصبح ذلك معتادا.

حين تزوجته، لم يكن أعضاء الجماعة يفعلون ذلك. حينما كانوا يأخذون الفتيات بالقوة كانوا يتزوجونهن، ولا يقتلونهن بعد اغتصابهن.

مثلا فى حوش مرسيلى، أخذوا العديد من الفتيات وخاصة من القرى المحيطة ببليدا.

وأظن أنه لو كان مهتما بى كما كان فى الماضى، كان سيفعل المستحيل لأظل بجواره.

كنت على استعداد لأتبعه حتى إلى الجبال لو طلب ذلك، كنت سأترك طفلى لأمى وأرحل معه.

لم يعد أحمد بعد هذه الغيبة الطويلة ليرانى ويقبل طفله، بل عاد بصفة أساسية ليرتب بعض الأمور فى الكفر. اغتيال الفتيات الخمس، والبحث عن الأشخاص الذين أبلغوا عن أصدقائه وتسببوا فى مقتل أربعة منهم وفرار ثلاثة آخرين. كما كان يريد أن يطمئن على حالة شبكة التموين والنقل والإيواء الداعمة للجماعة. بعض المخلصين القدامى توقفوا عن مساندتهم للجماعة وأصبح جمع المال أصعب. طلب منى أن أخبره عن المضايقات التى تعرضت لها فى غيابه. كان مستعدا لعقاب من فعل ذلك على الفور.

لم أقل له شيئا، فأول شخص عاملنى بسوء فى غيابه كان أبى

الذى لم يكن يريـدنى عنده واضطرنى أن أقـبل الحـيـاة مع ناس بالكاد أعرفهم أيضا بعض الجيران، لو أخبرته عنهم لقتلهم.

لم يكن الناس مـجبـرين على الاهتـمام بـى، والكثيـرون منهم كـانوا يتصـرفون بـدافع الانتقـام من العـقوبات والتى سـبق أن ذاقوها على يد زوجى.

أدرك أحمد بنفسه، أن الأحوال فى الكفر لم تعد كما كانت، وأن حلفـاءهم غيـروا مواقـعهم. منذ صـعد الجـبل، لم يظهر أحـد من أعضاء جيا فى حـى بانوب، وكان السكان يبلغون عن أى شخص مجهول أو مشتبه فيه.

ولقد توصل إلى نتيـجة، حتمية الـقيام بعملية تطهيـر واسعة. قـبلها كـان يجب أن يبعـدنى بأى ثمن. طلب من أبى أن يجـد لى مكانا آخر بعيدا عن حى بوناب.

خمنت أنه سـيقـدم على بعض الجرائم ويخاف أن ينـتقم منى الجيران، لكنى لم أجرؤ على سؤاله.

فى ذلك اليوم، أدركت أن أحـمد فقد كل حـرصه وحذره، وأنه أصبح مـسـتـعدا للقـيام بأى مـخاطرة دون تدبر لينتـهى، لم يكن يعترف بذلك لكنه يئس من تلك الحياة. كـان مدفوعا للموت، لكنه كـان يريد أن يحـصل عليـه وسـلاحـه فى يده ليـذهب إلى الجنة وخاصة بعد إصابة ذراعه.

خلال سـبعة شـهور، كـان يغير على جـرحه، كـان يعالج فى مسـتشـفى الجماعـة بالقرب من مـدية. كانوا يطلقـون عليه اسم مـسـتـشفـى ولكنى أعـتـقد أنـه لم يكن سـوى مكان به ممرض يعالجهم.

بعد هذه الليلة العـاصفة، ذهب فى الفـجر بعدمـا أوصانى بألا أخونه وألا أكفر.

فى الســاعات الأولى من الـنهار، ذهبت أمى لتـخـبر الشــرطة بعودة أحمد.

نصـحوا أمى بـإبعادى عن الكفر، كان يخافـون من أن يأخذنى أعضـاء الجـماعة بالقوة لأصــبح من جديد طاهيتهم كـما كنت من قبل.

لم أر أحمد بعد ذلك ابدا.

- ٢٧ -

وجـدت نفـسـى أخـيـرا على طريـق الانطلاق، كنت سـعـيـدة بحـصولى على اذن بـالذهاب إلى حيث اريد من الجـانبـين اللذين يحكمان حياتى : الشرطة وزوجى.

شـعـرت ببعض الحـرية. رجـال الشـرطة ألغـوا الإلزام الذى فرضـوه علىّ بالذهاب إليـهم اسبـوعيا، ولقـد ظلت فاطمـة تذهب إليهم بصفة دورية حتى بعد وفاة زوجها.

حريتى كان لها طعم مر. حرية لا أدرى ماذا أفعل بها.

مرة أخـرى وجدت نفسـى مجـبرة على البحث عن يد مـحسنة تمتد إلىّ لتهبنى مأوى ومسكنا.

أمى وافـقت، مـرة أخرى، أن تصـحـبنى فى هذا البـحث الذى أصبح متعبا.

لكن المهانة تحتمل أكثر عندما تقتسم على اثنين. ذهبت لتتوسل لواحدة من اخواتها تعيش فى زيرالدا، مع جدتى، لتأخذنى عندها. قالت لى : «المـنزل الذى تعيش فيـه اختى ملك أبى، ولـى أنا أيضا حق فيه».

لم تسـتـمع لها خـالتى، رفـضت أن تنصت إلىّ وكـان ردها : «عندى ثمانى بنات ولا أريد لهن أن يعشن الحياة التى عشتها».

كانت خائفة من أن يأتى، بحجة وجودى، اصدقاء زوجى ليأخذوا بناتها. لم تسمح لنا أن ننام عندها ليلة واحدة رغم أن الوقت كان متأخرا على العودة لحى بوناب.

خالى، الذى يعيش بجوارها هو الذى استضافنا هذه الليلة، بشرط أن نستيقظ فى السادسة صباحا ونترك منزله.

لم أكف عن البكاء طوال الليل، فى الصباح كنت أحس أن هناك غمامة على عينى. عالمى كان يضيق أكثر فأكثر، لا أحد كان متعاطفا مع مصيرى ، كل مرة كانوا يتجاهلون توسلاتى ورجائى.

فكرت فى عمى الذى يعيش فى شيراجا، ربما يكون أكثر تعاطفا معى رغم أنه لم يشعر بآلامى آخر مرة. محاولتى التى كررتها أتت بثمارها. لكنه حدد أيام الاستضافة بثلاثة أيام فقط. فلقد ارتكبت خطأ حين قلت لزوجته أن أحمد سيأتى ليأخذنى حالما يصبح ذلك ممكنا. وتخيلت الزوجة حضور أحمد ضمن كوكبة من زملائه المسلحين وتهجمهم على منزلها.

ولقد عاتبتنى على أننى لم أقل ذلك من البداية، فلو فعلت ما كانت لتتركنى أضع قدمى فى منزلها.

ماذا أفعل؟ شهور ووالداى يتبعاننى فى تجوالى وتنقلاتى، ولم يعد فى استطاعتهما تقديم المزيد. لم يطاوعهما قلباهما على إهمالى. ذهبت لجميع المعارف بلا جدوى. لم يعد أمامى إلا أن اتشرد فى الشوارع أو انتحر. أبى كان يحتفظ رغم كل شىء ببعض المحبة لى. فكر فى آخر معروف يمكن أن يقدمه لى. أن يستأجر لى ولطفلى وله كوخا، فلم يكن يستطيع أن يتركنى

وحدى وبالفعل قـام باستئجار كـوخ مقابل ٢٠ الف دينار سنويا فى منطقة عـواد بنى موسـى أخـرج آخر قرش من مـدخراته التى لم يكن يريد أن يمسها. وترك زوجته وأطفاله فى حى بوناب.

الكوخ الذى استـأجره كان عـبارة عن حـوائط، نوافذه وأبوابه مجرد ثقوب بلا سقف، ضائع وسـط الغابة. لإغلاق هذه الفتحات، استخدم أبى ألواح الصاج المعرج التى اشـتراها لتوسعة منزله فى حى بوناب.

لم يكن بالكوخ ماء أو كهربـاء سمح لنا سكان المزرعة المجاورة بأن نسحب سلك كهرباء من عندهم. بالنسـبة للماء كان أبى يذهب لإحضاره من بئر بعيد.

فى هذه المنطقة المنعزلة، كانت الطريقة الوحـيدة لتقضية الوقت العناية بابنى. عندما ينام، كنت أقوم بأشغال الابرة على قطعة من القماش القديم التى احضرتها من عند جدتى.

كان أبى يخرج للتجول، أو يذهب للقرية أو يزور أمى وإخوتى. بعد عدة أيام، ارسلت لنا أمى تليفـزيونها، اصبح الوقت يسير أقل بطئا.

كان الشىء غـير المحتمل، رؤية أبى يتـعذب، فلقد كان ضـائعا بعيدا عن أمى. كان البؤس والتعاسة باديين على وجهه. عندما كان يضيق بهذا الوضع كان يصب جام غضبه علىّ.

كلما مـرت الأيام، أصبح أكثر تبـرما وعنفا مـعى. كان يؤنبنى ويتـهـمنى بأنى السـبب فى هذا الوضع وكـان يقـول لى : «لقـد تزوجته بناء على رغبتك وضد رغـبتى، وأنا الذى اتحمل مشاكلك الآن».

كان يردد ذلك على مسـامعى دائما ويضيف أحـيانا : «مادمت تحبين الجهاد، فلم لم تذهبى مع زوجك لتموتا واستطيع أن أعيش فى سلام».

فى البـداية، كان يـسعـد بتأنـيبى، أحـيانـا كان يرفع صـوته ويهددنى بقبضته بل حدث مرة أن رفع فى وجهى سكينا.

فى يوم، انفجر غـضبه عندما دافـعت عن نفسى بدل السكوت كعادتى، فلم أعد أنا الأخرى قادرة على الاحتمال.

ولأول مرة منذ كبُـرت، يضربنى بقسوة وضراوة لم اتوقـعها ثم خرج .

بقـيت وحدى، جـففت دمـوعى وبدأت أفكر. إذا كان يضـربنى هكذا اليوم، فـالمرة القادمة سيـقتلنى بالتأكيـد والأفضل أن أهرب قبل فوات الأوان. حـملت ابنى وتركت المنزل بدون نقود أو هدف، فلقد صممت ألا أبقى معه وكنت اظنه فى القرية.

لم أكن أعـرف أى الطرق اسلك فى هذه الغابة الكـثيفـة لأصل للطريق الرئيـسى. كنت أجـرى على غـيـر هدى. تركت غـريزتى تقودنى وبالفعل أوشكت على الوصول للطريق العام.

لمحت امرأة، أوقـفتـها لأسألهـا عن موقف السـيارات. فى هذه المناطق المعـزولة تـواجد الـغربـاء يثـيـر ريبـة السكان. وعندمـا شاهـدونى وأنا أجرى وطفلى بين ذراعى، توجـسوا منـى خيـفة وأخذوا يطاردوننى وكأننى كلب مسعور.

أبى كان مـوجودا فى مزرعة مـجاورة، على بعد مائة مـتر من هذا المشـهد. كان يعـرف اصحـاب المزرعة، عـمل معهم مـنذ عدة سنوات وكانوا يعطونه الخضراوات والفواكه.

من بعيد شاهد المنظر، وبدون أن يحدد ملامحي من هذا البعد أدرك أنه أنا. اطلق صفارة لا توجه إليه. لكنني تجاهلتها. أخذ يجرى بكل قوته في اتجاهي. تمكن من الامساك بي على الطريق. رفع الخمار وشدني من شعرى ودفعني في اتجاه المنزل وهو يركلني بقدمه.

نزع ابني من يدى وألقى به على كومة من الحطب الجاف. وصرخ بكل قوته : «هل تريدين أن تذهبي للإرهابيين، هل اعطوك موعدا؟».

كنت أحاول أن اشرح له وأنا ابكي، أنني رحلت ليتمكن من العودة لحياته الطبيعية لكنه لم يستمع لي.

انهال على وجهي وجسدى باللكمات والصفعات. لم أعد اشعر بآلام الضرب المبرح فلقد كنت على وشك فقدان الوعي. سكان المزرعة الذين كانوا يطاردونني منذ دقائق، اشفقوا على حالي حاولوا التدخل لمنع أبي من ضربي بدون جدوى.

جرجرني أبي من شعرى إلى الكوخ، وهناك ضربني بعصا غليظة كان يحتفظ بها. مزق ظهرى بها حتى نزف دما. لم أعد قادرة على القيام بأى حركة أو الدفاع عن نفسي. تمددت في الأرض وتركته يفعل ما يشاء اردت أن تأتي النهاية سريعا، فلقد كنت مقتنعة أنه لن يتوقف قبل أن يقتلني.

لكن الموت لم يأت. ارتمى أبي على الأرض ككيس رمل ثقيل وأخذ ينتحب : «من أجلك تركت منزلي وأولادى، من أجلك تورطت وأهنت من الجميع، وأنت تجرؤين على الرحيل وتتركينني وحدى.».

ظل يبكى بصـوت عـال ولفتـرة طويلة ثم توقف. كنت اسـمع صوت أنفاســه المتقطعة. كانت الكـلمات تخرج من فمه بـصعوبة. اقسمت له أننى لم أكن أريد الذهاب لأتبع الإرهابيين.

كانت تعاسة العالم كله ظاهرة على وجهه. عندما رأيته فى هذه الحال شعرت بأن سكينا حـادا انغرس فى قلبى وطلقات رصاص استقرت فى حلقى. لم أعـد اشعر بآلامى قدر ما أشعر بتـعاسته، حتى أننى ارتميت على قدميه طالبة الصفح والغفران.

حدث ذلك فى يوم ٢٣ نوفـمبر ٩٦. بعد ذلك بيـومين لم أتمكن من القـيام من الفـراش. كنت أتقـيأ، ومـحمـومة وآلام حـادة فى جسمى كله وخاصة فى بطنى.

فـزع أبى وظن أنه كـسـر لى ضلعـا. ذهب ليـبـحث عن أحـد الجيران ليـساعده. جاء الجـار ومعه شاحنة صغـيرة ونقلنى إلى المستشفى فى بنى موسى.

شخص الطبـيب حالتى ، طبقا للأعـراض، على أنه حمل. بدأت أصرخ بهـستيـريا : «ليس هذا وقت طفل آخر، افـعلوا ما تريدون لكنى لا أريده».

لا يمكن لأحد أن يتصـور مدى سعادتى، عندما ظهرت نتـيجة اختبار الحـمل بعد عدة أيام وكانت سلبية. حالتى الصـحية كانت سيئة لدرجـة أن الأطباء حجزونى فى المستشـفى لمدة ثلاثة عشر يوما. الدكتور بوراس، رئيس قـسم أمراض النساء، عاملنى بلطف وشملنى برعايته بعد أن حكيت له قصة حياتى بالتفصيل.

لاحظ أننى خائفة فطمـأننى وقال : «لا تقلقى، نحن هنا للعناية بالبشر ولسنا متوحشين مثل زوجك واصدقائه.».

لم يكن معى فلوس، استثنونى من نفقات المستشفى. وكان د. بوراس يشترى لى الأدوية غير المتوافرة فى المستشفى، بل إنه اعتنى أيضا بطفلى.

تركت طفلى مع أمى، التى كانت ترضعه لبنا عاديا، لم يكن معها نقود لتشترى لبن اطفال. مرض بعد اسبوع، فأحضرته إلى المستشفى. لم يسمح لى د. بوراس بالخروج إلا بعد شفائى التام وكذلك ابنى.

بعد خروجى بعدة أيام، خمس بنات اغتلن فى حى بوناب. الجميع خمن أن أحمد وجماعته وراء الحادث.

فى صباح نفس اليوم، خوفا من انتقام عائلات الفتيات أو رجال الشرطة، حضرت أمى وإخوتى إلينا فى الكوخ.

حشرنا جميعا فيه واكملنا العام بالطول والعرض. فى يونيو ٩٧ بعد يومين من الانتخابات التشريعية، قمنا بمحاولة للعودة لمنزلنا. استأجر أبى سيارة كبيرة، شحنا كل متعلقاتنا بما فيها ألواح الصاج. كانت العائلة سعيدة بالعودة.

للأسف، عند عودتنا لحى بوناب كان الجيران قد نظموا مظاهرة احتجاج ليمنعونا من دخول منزلنا. كانوا جميعا مسلحين، رفعوا سلاحهم فى وجوهنا. ذهبوا لرجال الشرطة ليعربوا لهم عن عدم ترحيبهم بوجودنا بينهم وقالوا : «لو تركناهم يعودون، سيعود الإرهابيون أيضا».

بالرغم من اذن السلطات لنا بالعودة، والذى حصل عليه أبى مسبقا، لم نستطع أن ندخل منزلنا.

هددنا الجيران بإشعال النار فى الشاحنة واعدامنا لو لم نرجع من حيث جئنا وفورا.

أمام هذه الشراسة والفظاظة كنت اشعر بالاشمئزاز تملكتنى رغبة فى أن أقف واذكرهم جميعا، هؤلاء الذين يشهرون اليوم اسلحتهم فى وجه عائلة لا حول لها ولا قوة، بما فعلوه.

فذاكرتهم ضعيفة، فهل نسوا سريعا الدعم الذى قدموه لأعضاء الجماعة؟ لم أكن أريد أن استفزهم أكثر فابتلعت كلماتى.

عدنا مرة أخرى للكوخ، ولحسن الحظ أن ايجاره كان ممتدا لشهرين آخرين. بدأنا مرة أخرى فى تسقيفه وسد الفتحات بألواح الصاج. اشفق علينا سكان المزرعة وعرضوا علينا استضافتنا حتى نرتب أمورنا.

فى المساء، ثار أبى علىّ. اصبح ذلك عاديا، ومنذ رفع يده علىّ المرة الأولى اصبح يضربنى تقريبا يوميا. هذه المرة ساعده أحد إخوتى وبتشجيع من الجميع.

كانوا محبطين لعدم قدرتهم على العودة لمنزلهم ودفعت أنا ثمن هذا الاحباط. لا يمكننى أن أنسى كم الصفعات التى تلقيتها.

- ٢٨ -

سكان حى بوناب، ساندوا جيا. وكانوا يسعدون برؤية أعضاء الجماعة يقتلون رجال الشـرطة ومساعدى الأمن من الشعب كانوا يعتـبرون المتـقربين إلى السلطة اثرياء ومـتسلطين ويسـتحـقون العقاب. لكن منذ بدأت جـيا مذابحها ضـد المدنيين، الذين ليس لهم صلة بالدولة وكذلك قتل عائلات كاملة دون تمييز، فإن هذا القبول الذى كان يظهره الشعب لهم انقلب إلى فزع وهول.

عندمـا تأكد الشـعب أن لا أحد فى منأى من جنونهم الـدموى غـيروا مـوقعـهم. فى حى بوناب، كـما فى خـارجه، فـإن حركـة مقاومة جيا اصبحت ضـارية. كـما أن الشباب الذين تبعوا الجماعة اصبحوا أقل عددا من هؤلاء الذين تسلحوا ضدهم اليوم.

لم يعد هناك منزل فى الكفر ليس به سلاح. سكان الكفر غيروا موقـفهم منذ اليوم الذى قطع فيـه اعضاء الجمـاعة جثث الفتـيات الخمس. أدركوا فى هذه اللحظة، أن هذا يمكن أن يحدث لهم ايضا.

منذ اسـبوع، وجد فى مـنزل كان يسكنه اعـضاء جـيا، قائـمة بأسماء الاشـخاص المطلوب التـخلص منهم هذه القائمة كانت تضم نصف سكان الكفر تقريبا. اعطت الشرطة السلاح للناس. محذرين إياهم من مذبحة منظمة.

الجـيران ظـنوا أنه فخ. فـحتى ذلك الحـين كـانوا واثقـين فى

اعضــاء جيا ولســان حالهم يقـول : «بعد كل ما فـعلناه من أجلهم لا يمكن أن يلمسونا».

لكن بعـد ذلك قتلت الفـتيـات الخمس وألقـيت رؤوسهـن أمام أبواب الاشخاص الذين جاءت اسمـاؤهم فى القائمة. كانت رسالة تهديد. عندما عاد أحمد بعد غياب سـبعة شهور، كان كثير السؤال عن سلوى وفتيحة، كانتا اعز صـديقاتى وكنت متأكدة أنه يحضر لهما شيئا. قتلوا الفتـيات، لأنهن يخرجن كثيرا ويختلطن بالرجال. كن يخرجن بملابس قصيرة، الوحيدات فى الكفر اللاتى لم يرتدين الحجاب.

كان يعملن، رغم تحـذير الجماعة لهن، فلقـد كن مصدر الرزق لعائلاتهن ولقد بدأوا بالفـتيات، لأنهم كانوا يعرفـون أن جيرانهن لا يحبونهن بسبب مظهرهن وسلوكهن المتحرر.

كان الجـيران متحـالفين ضدهن، فظن اعـضـاء جيا أن فـعلتهم ستلاقى ترحيبا.

لكن غاب عن أعضاء الجماعـة أن الجيران لم يتمنوا ابدا موتهن والتمثيل بجثثهن. كانت صدمة فظيعة.

سكان حى بوناب كـانوا مـتـخـاذلين حـتى أن أعـضاء جـيـا لم يتوقعوا يوما أنهم سيقفون أمامهم.

قبل شـهر من مقتل الفـتيات، اصـيب والدهن بأزمة فى القلب. فى هذا الوقت كان الجـميع يغلق باب منزله فـى السادسة مـساء طبقا لأوامر جيا. مهما حدث فى الليل يجب الانتظار للصباح.

فى مساء أحد الأيام، حوالى السـاعة العاشرة شعر الأب بآلام مبـرحة فى الصـدر. اخذت سلوى واخـواتها الثـلاث فى الصراخ وطرقن أبواب الجيران طلبـا للمساعدة لنقله للمستـشفى. لم يفتح

أحد. أبى خرج لهن، ليس عن شجاعة، ولكن ظنا بأنه أنا التى أصرخ وأن الشرطة حضرت لتأخذنى. وكان ينام فى منزل مجاور وهى عادة ابتدعها رجال الحى. فكانوا يجتمعون كل مساء عند جار مختلف ليستطيعوا مواجهة أى معركة محتملة.

خرج أبى ووجد نفسه أمام بنات يبكين. لم يستطع أن يتراجع وذهب ليرى والدهن. اجرى له تدليكا وساعده فى استعادة تنفسه.

ولقد اعترف لى ابى أنه لو كان يعرف الحقيقة ما خرج. فى اليوم التالى، ذهب الجيران ليسألوا عن صحة المريض. وبسذاجة فجة قالوا لبناته إنهم ظنوا أنه يحتضر. أمام هذه الوقاحة، سلوى الابنة الكبرى لم تستطع أن تكبت ثورتها. قالت لهم بدون مواربة: «أنتم مجموعة من الانذال، الآن تظهرون قلقكم على صحة أبى، ولو جاءوا ليقتلونا لن تفعلوا شيئا».

بهت الجيران، تمادت سلوى فطردتهم من بيتها.

وبالنسبة لفتيحة كانت تقول لى : «سيقتلوننى وسلوى بالتأكيد.» ولقد عرفت بعد ذلك أنها كانت خائفة لأنها تخرج مع مساعد أمن.

بعد شهر من هذه الحادثة، قتلوا سلوى وأخواتها البنات وفتيحة.

اخرجهن أعضاء جيا من منازلهن فى منتصف الليل. كانت الفتيات يصرخن كالمجانين، ولقد سمعهن الكفر كله، لكن لم يتحرك أحد لنجدتهن. «حفيدة» اصغر أخوات سلوى قتلوها فى فراشها برصاصة فى جمجمتها، لأنه فى اللحظة التى أرادوا اخراجها أغمى عليها.

كانت رقيقة ولطيفة، كانت ستتزوج أخي، لم تتجاوز السابعة عشرة من عمرها.

أمي كانت في حي بوناب هذا اليوم وشاهدت أحمد. في اليوم التالي تركت الكفر. وكذلك فعل الجيران. فرؤية رؤوس ملقاة أمام الأبواب بذرت الرعب في القلوب.

لم يرجع السكان إلا بعد أن تلقوا سلاحا ليواجهوا هؤلاء الذين اصبحوا عدوهم المشترك.

إن ذلك يظهر كيف تتحول الأمور بسرعة فائقة.

سكان حي بوناب كانوا يعرفون أفعال أعضاء جيا. لم يكونوا يشاركون بصورة مباشرة لكنهم كانوا شركاءهم بالصمت.

اليوم، الذي عدت فيه مع اسرتي على أمل الاستقرار في منزلنا، وهددنا السكان كنت أرغب في مواجهتهم وتذكيرهم بمواقفهم المتراخية من قبل. في هذه الفترة كانوا ضعفاء، أو كانوا صبورين. كنت أفهم رعبهم بسبب الفظائع التي يرتكبها اعضاء الجماعة.

اتذكر امرأة ادعت عليّ بقصة حقيرة. كانت ثرثارة، دارت في المنطقة تحكي أن عندي طفلا من رجل آخر قبل زواجي. وصلت الشائعة لأحمد. بدون تفكير ذهب ليقتلها. لحسن حظها كانت غائبة عن المنزل في ذلك اليوم. كان زوجها موجودا واستطاع أن يهدىء أحمد بعد أن ركع على ركبتيه متوسلا إليه.

بفضل زوجها، انقذت حياتها، فلقد كان أحمد يحترمه ويحبه منذ طفولته كنت متأكدة أنه لو وجد المرأة في منزلها في هذه اللحظة، لكان قتلها فورا. إن هذه الوحشية هي التي جعلت حلفاءهم السابقين يرتدون ضدهم. مثلما فعل أخي، ابن الخامسة

عشرة. كان معجبا بزوجي واصدقائه لدرجة الانبهار. الآن اصبح يشمئز منهم. ولقد ابلغ عن الجماعة، وتم القبض عليهم فى غابة بوشاوى (على بعد ١٥ كم من الجزائر العاصمة). فى خريف ٩٧.

كان يذهب إلى ورشة، مع صديق ليصلح المواسير النحاسية القديمة ويعيد بيعها للسائقين الذين يمرون على الطريق السريع. كان يفعل ذلك من وقت لآخر ليكسب بعض المال كمصروف جيب.

فى يوم، اثناء عبوره الحديقة، سمع تأوهات وأنينا. اقترب من مصدر الصوت. وجد رجلا عجوزا مضروبا بمعول على رأسه. أسرع وابلغ حارس الحديقة. هذا الأخير خاف من الذهاب للشرطة.

بعث أخى ليخبر ابن الضحية، الذى كان من رجال الأمن.

على أثر ذلك، اجريت عملية تمشيط واسعة للمنطقة اسفرت عن مقتل عدد كبير من أعضاء الجماعة.

الشىء المثير للدهشة، أن أخى كان سعيدا جدا بإبلاغه عنهم والايقاع بهم.

بالنسبة لأبى، كان أكبر أمنية له أن يقتل أحمد بيديه. طلب سلاحا لكن طلبه رفض مادام أحمد حيا.

حاول كثيرا أن يقنع الشرطة، بأنه وحده الذى يستطيع أن يصيده لأنه يعرف عاداته جيدا.

الآن هو سعيد باقتنائه بندقية مثل جميع سكان حى بوناب.

ولفترة طويلة كانت هناك فكرة تؤرقنى، أن يقتل أبى زوجى.

فكيف يمكن أن يكون رد فعل ابنى، عندما يعلم بعد ذلك أن جده قتل أباه!!

- ٢٩ -

فى اغسطس ٩٧، لم يكن معنا نقود لنجـدد عقد كوخ عواد بنى موسى، لذلك ذهبنا لعمى فى شيراجـا. هذه المرة لم يجد الشجاعة لطرد اثنى عشر شخصا هم عدد اسرتنا.

امضينا عنده حوالى سنة، لم يخفف عنا خلالها عناء الحياة بل العكس. فلم يكن يترك مناسبة دون أن يظهر فيها تبرمه من عددنا الكبيـر. الحقيقـة انه بالنسبة له كـان الوضع أيضا مزعجـا. فلقد توقف عن اكمـال بناء منزله ليسـكننا فى حجرتين كـان قد شـيد حوائـطهما فـى فناء المنزل. كان عليـه أن يتم أعمـاله لكن لم يكن يستطيع مادمنا موجودين.

فى اليوم الذى وصلنا فـيه، سـألنى هل أحضـرت معى نقودا؟ كان يظن أن أموال الجماعـة فى حى بوناب معى. ولقد سـألنى أبى نفس السـؤال. كـان واضـحـا، إننى لو كنت امـتلك هذه الأمـوال ما كان هذا حالى.

كـان لى عم آخر يعـيش فى شـيراجـا، قريب من الأول. كـان يسكن فيلا من ثلاثة طوابق، لكنه رفض رفضا قاطعا أن يستقبلنا ولو لليلة واحدة. كان يخاف من جـيرانه، الذين يعرفون أن زوجى أمير فى جيا.

بعض سكان حى بوناب، كـان لهم أقارب فى شـيراجـا، كانوا يقصون عليهم كل شىء، كان الجميع يعرف.

فى يوم، قابلت فى الطريق، زميلة من زميلات الدراسة لم أرها منذ ثمانى سنوات. تجاهلتها حتى اتفادى الاستفسارات والأسئلة. لكن هى عرفـتنى وتوقفت لتحـيتى، كانت على علم بكل تفـاصيل حياتى. لذلك.. فبالنسـبة لهذا العم، الذى نجح فى حياته، كنا نمثل عقبة فى طريق أعماله ومشاريعه.

عندما كـنا نذهب من آن لآخر، لزيارته فى الأعـياد فـقط، كان جيـرانه يدخلون اطفالهم ويغـلقون الأبواب والنوافذ فـى وجوهنا لتفادى تحيتنا. كانوا يقولون إننا نحمل رائحة الإرهابيين.

طوال فترة إقامتنا فى شـيراجا، كنا نحاول أن نعيش فى هدوء شديد حتى لا نثير الانتباه. فمـثلا، كان أطفال الجيران يتعرضون لأخى المعوق ويسخرون منه، فكنا نلتزم الصمت.

كنا نتحمل كل شىء دون أن نفتح أفـواهنا خاصة أنا. كان ذلك الثمن الذى ندفـعه لنسـتمر تحت هذا السـقف الذى يؤوينا والذى حصلنا عليه بصعوبة ومن الممكن أن نطرد منه فى أى لحظة.

كان عـمى شريرا مع ابنـى، فاجأته أكـثر من مـرة، وهو يقلب إخوتى الصغار عليه ويضربه. كـان يخرج الطعام من فمه، ويثور لو رأى أحـدا يعطيه شـيئـا ويقول : «أنتم تسـمنون ابن الإرهاب حتى يكبر ويصبح مثل أبيه».

لم يكن يجـرؤ على مواجـهتـى مبـاشرة، لأنه كـان يشك أننى مازلت على صلة بزوجى.

كـان وضع أخواتى البـنات يسبب لى قـدرا كـبيـرا من الآلام،

فمستقبلهن الدراسى كان على وشك الضياع.

• فوزية «١٢ سنة»، كانت دائما الأولى على فصلها، لكنها انقطعت عن دراستها، فلقد رفضوا فى مدرسة شيراجا أن يسجلوها لأنها تعيش فى البلدة.

وعمى، خوفا من أن نبقى عنده إلى ما لا نهاية، رفض أن يستخرج لنا شهادة إقامة، كما كان المسئولون فى المدرسة حذرين منا. كانوا يشكون فينا. ولقد حدث نفس الشيء لأختى شهرزاد (٩سنوات) كانت مواردنا المالية محدودة. فقط أخى (١٩سنة) هو الذى كان يعمل ويعطى فلوسا لأبى. كان عاملا فى طائفة المعمار، ولم يكن يتحدث معى منذ ستة أعوام منذ بدأت أقابل أحمد.

لم يكن يقول لى حتى صباح الخير، وكان يمنعنى من أن ألمس اشياءه عندما كان يراني احضر الطعام، كان يرفض أن يتناوله.

كان يكره أن يرى ابنى يأكل، ففلوسه يجب ألا تستخدم فى اطعام ابن إرهابى. كان يمنع عنى استخدام مسحوق الغسيل الذى يشتريه حتى لا أغسل به ملابس ابنى.

أخى الأصغر (١٧ سنة) كان أسوأ من الأول. كان يساعد عمى فى محل الحلاقة. كان يكسب بالكاد ما ينفقه على السجائر ومصروف جيبه. فى يوم العيد، اصطحب ابى ابنى ليقص له شعره.

رفض عمى وأخى أن يقوما بذلك، بعد أن انتظر أبى وابنى طوال النهار.

ولقد ظل ابنى طوال عامه الأول بدون حذاء. عندما بدأ يمشى، اسمنت الفناء ألهب له قدميه الصغيرتين لم يعرض أحد أن

يشترى له حذاء، رغم أن عمى لم يكن فى ضيق مادى، فبالاضافة لصالون الحلاقة، كان له تجارته فى قطع غيار السيارات.

أخى الثالث (١٥ سنة) توقف عن الدراسة قبل أن نترك حى بوناب. لم تكن عنده رغبة فى التعليم. منذ صغره كان يتسكع بدل الذهاب للمدرسة. الرابع (١١ سنة) كان معوقا ويسير على كرسى متحرك. كنا نتمنى أن نجد له مكانا فى مركز متخصص لكن ذلك كان يحتاج لمعرفة ووساطة.

كان لى اختان صغيرتان سبعة أعوام واربعة أعوام، ولو لم تفقد أمى طفلة اثناء ولادتها لكنا عشرة.

حماتى، كان لديها ما تساعد به حفيدها، لكنها لم تفعل شيئا.

لم تسع يوما لرؤيته، فى حين كانت تقول لى اثناء حملى «لوانجبت ولدا سأعتنى به جيدا».

لو كنت ابحث عن إثارة المشاكل لها، لذهبت وقلت إن زوجى هو الذى اشترى لها كل ما تملكه : المنزل، البقر، السيارة الصغيرة ومحل البقالة... الخ وكتب كل ذلك باسم أخيه الكبير.

المأمور وعدنى، لو أردت، أن يساعدنى فى الحصول على حقوقى. لكن حال حماتى كان يؤلمنى، فآلام فقدانها لثلاثة من ابنائها كانت عظيمة، ولم أكن أريد أن أضيف ألما آخر.

على كل الأحوال كانت حاذقة، فمنذ عدة شهور، باعت كل شىء.

اشترت منزلا مع ابنها الأخير فى بلدة أخرى، ووضعت باقى الفلوس فى البنك.

للخروج من هذا الموقف، كان لابد أن أجد مكانا استقر فيه،

حتى تستطيع عائلتى أن تعود لحى بوناب.

لكن قليلا من الناس الذين يقبلون استـقبال امرأة ارهابى حتى بعد وفاته. بدافع اليأس كتبت «لبيوت الخـير» وهى جمعية خيرية تستقبل المحتاجين، لكن للاسف لم يكن عندهم مكان لى.

تحدثت عن حالتى مع الكثيريـن ليساعدونى فى ايجاد حل بلا جدوى. حتى كان ذلك اليوم. كنت اشاهد التليفزيون، ورأيت داليلا رئيسة جمعية لمساعدة النساء اللواتى فى ضيق. كانت تتحدث عن انشطة الجـمعـية. فكرت أنهـا يمكن أن تنقذنى. اتصلت تـليفونـيا بالرقم الذى ذكرته واخذت عنوان الجمعية.

قدمت نفسى لها، وقصصت عليها كل تفاصيل حياتى.

فى البداية دعـمتنى مـاديا وكذلك عائلتى، ثـم وجدت لى مكانا عند عائلة من معارفها حيث أعيش الآن فى خير حال.

٣٠

منذ مقتل أحمد، وأنا أشعر أنني عدت للحياة. عندما تزوجته لم أكن أرغب سوى فى حياة هادئة مع من أحب. كنا فقراء، وكان حلمنا الرومانسى البسيط فى أن تكون الأرض فراشنا والسماء غطاءنا.

كان تفكيرى بعيدا كل البعد عن تصور أنه يوما ما سيقدم لى أثاث وملابس وامتعة الأشخاص الذين قتلهم.

أتمنى أن تكون قصتى عظة وعبرة لغيرى من الفتيات. لقد تورطت فى هذه الحياة القاسية التعسة بسبب حبى لرجل بالكاد عرفته. فحياتنا المشتركة لم تستمر لأكثر من ثلاثة شهور. سأقص كل شىء على ابنه عندما يكبر ويفهم، فيجب أن يعرف الحقيقة يوما.

فاطمة ايضا، وجدت السلام والسكينة بعد وفاة زوجها. منذ ذلك الحين، أعاد إخوتها صلتهم بها، بعد أن قاطعوها بعد زواجها، ويعتنون بها الآن وبابنتها. وستتزوج من رجل ليس له أى علاقة بالجماعة. مشكلتها الوحيدة أن ابنتها غير مسجلة فى سجلات الحالة المدنية. وستكون مضطرة لتسجيلها تحت مسمى مولودة من أم عازبة وأب مجهول. ولقد شهدت حماتها بأن الصغيرة هى طفلة ابنها، لكن السلطات لم تستمع لشهادتها أو تأخذ بها.

كل المآسى التى عشتها جعلتنى أشك فى كل شىء الآن بما فيه الدين بعد اختفاء زوجى، استمررت بعض الوقت فى اقامة الصلاة، لكن ليس فى مواعيدها. فى البرد كنت اتكاسل عن الاستيقاظ مبكرا والخروج للوضوء فى الفناء. الآن توقفت تماما عن الصلاة وأبى مثلى، من وقت لآخر يصلى ويطلب من الله المساعدة.

أمى لم تصل ابدا. ولقد وصلت لدرجة أن سألت نفسى : «هل الله راض عن اشخاص مثل أحمد، يقضون وقتهم فى الصلاة وقتل الأبرياء فى نفس الوقت؟».

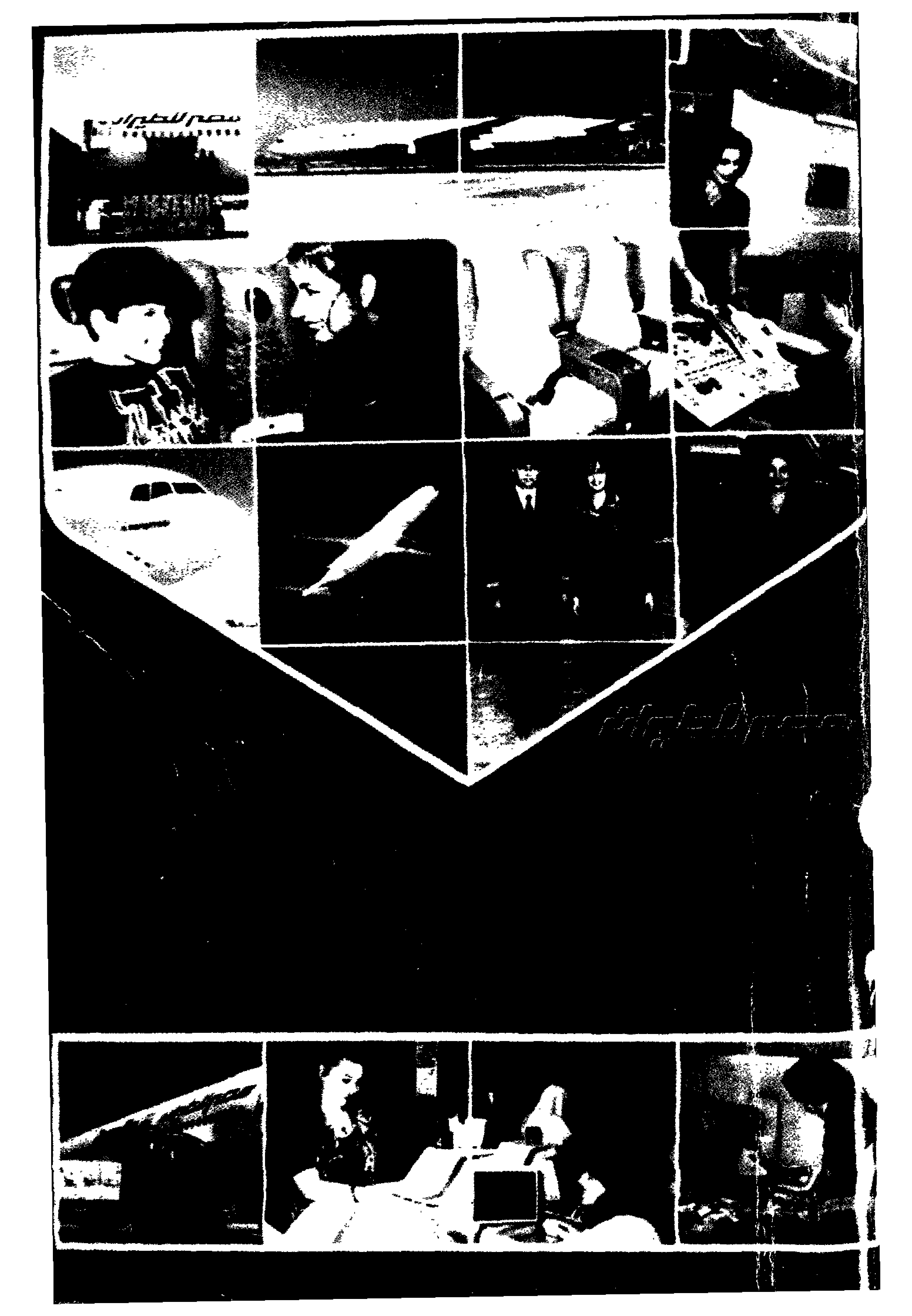
ثم أفكر فى كل ما حدث لى وأقول لنفسى : «لماذا يجب أن أصلى بعدما تركنى الله أعانى؟» فى البداية، توقفت عن اتباع نصائح زوجى لدخول الجنة، مثل ارتدائى للحجاب فى المنزل حتى أمام أبى وأمى. ولم أعد ألبس النقاب عندما اخرج. بمرور الوقت اصبحت اخرج بدون حجاب. واصبحت ارتدى بنطلونات ضيقة فى المنزل وهو ما لم أكن أفعله فيما مضى.

منذ عملى وحياتى مع هذه العائلة الجديدة أصبحت سعيدة.

سيدة المنزل قالت لى من اليوم الأولى : «انت مثل ابنتى». أقوم بأعمال المنزل، واعيش فى نفس البيت فى حجرة منفصلة، دافئة ومريحة. لم يكن لى ابدا حجرة تخصنى. والداى وإخوتى أيضا كانوا سعداء. فرحيلى، كان يمثل لهم نهاية المأساة والمعاناة والمهانة. فلقد عادوا إلى منزلهم فى حى بوناب وهم سعداء بحياتهم البسيطة.

امنيتى الوحيدة الآن، أن اتمكن يوما من أن آخذ ابنى الذى تركته عند أمى.

رقم الإيداع ٤٠٧٨/٩٩
الترقيم الدولى
I.S.B.N
977-08-0809-1



هذا الكتاب

هل يتمتع الإرهابى - حقيقة - بشخصية سوية وقوية متماسكة.. ويعيش فى سلام مع نفسه.. ويتعاطف مع المجتمع الذى يعيش فيه..؟! وهل يشعر أن له مهمة مقدسة يسعى لتحقيقها..؟!

هذا الكتاب يكشف الزيف الذى يحاول أن يخدعنا به.. ويقدم صورة حقيقية وواقعية لشخصية الإرهابى.. وهى شخصية مختلفة تماما.. فالإرهابى مهزوز من الداخل ونفسيته مليئة بالعقد.. وهو حقود لا يعرف الحب أبدا.. كما أنه لا يسعى لتحقيق مهمة مقدسة.. بل فى الواقع هو عميل ينفذ تعليمات ومؤامرات رؤسائه من الأمراء التى تهدف إلى هدم المجتمع وخراب البلد وإفقار الناس وقتلهم.

هذه الحقائق تصدمنا أثناء قراءتنا لهذا الكتاب الخطير.. فهو اعترافات لزوجة عاشت طويلا مع أمير من أمراء الإرهاب.. واستطاعت أن تكشف حقيقته التى يخفيها.

نبيل أباظة

الثمن ٥ جنيهات

طبع بمطابع أخبار اليوم